آنَ الأَوَان!

مُطَارَحاتٌ هَادِئَةٌ مع الأستاذ محمد العربي أبو حزم

عبد الرحمن خيزران

مُمَهِّدات لِنِقَاش مُثْمِر

نشر أخي الأديب الأستاذ محمد العربي أبو حزم، رسالة مفتوحة إلى الأمين العام لجماعة العدل والإحسان فضيلة الأستاذ محمد عبادي، حملت عنوانا أصْليًّا "قبل فوات الأوان"[1]، اقتسَمَها على صفحته الفيسبوكية مع قُرَّاء الفضاء الأزرق. يواصل فيها عرض ما يراه في مسألة "الصحبة" بعد رحيل الإمام عبد السلام ياسين، رحمه الله تعالى، ومسألة خِلافته والمصحوب من بعده، وطريقة تدبير الجماعة للقضية، وما يحسبه "تضييع" قيادة الجماعة للأمانة، محذّرا إياها "قبل فوات الأوان".

وقد توسّع هذه المرة في الموضوع، بل تجاوزه لما اعتبر أنه من نتائجه، ليعرض قضايا أخرى تنظيمية وسياسية وتاريخية.

ولأن الرسالة[2] استئناف للقول، وإعادة للفكرة التي جاء بها كتابه الأول "في الحاجة إلى صحبة رجل - الصحبة والجماعة عند الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله"[3]، ناهيك عن كتيبه الثاني "قراءة في الوصية المُغَيَّبة للإمام عبد السلام ياسين رحمه الله"[4]، فهذا التطارح معني بالفكرة الجوهرية التي تَنْتَظِمُ طرحه، مع الإلحاح على أن التركيز الأكبر سينصَبُّ على الرسالة الأخيرة وقضاياها وتفاصيلها.

ولأني واحد من أبناء هذه الجماعة المباركة، الذين تربَّوْا في محاضنها منذ ربع قرن من الزمن، وعَايَش بعضا من محطاتها الكبرى، وتتلمذَ على مشروعها التجديدي، وما ازداد إلا اقتناعا -عقلا وقلبا- بهذا الذي نما وترعرع وشبّ وكَبُر فيه، أجدني معنيا بهذا النقاش الذي يُصرّ أخي العربي على إثارته. ولأني أخالفه في مُجْمَل ما ذهب إليه، تأتي هذه المطارحات الهادئة[5]، مفتوحة كما رسالته، كي أناقشه، بما استقر في روحي وفكري من نظر

---

[1] - العنوان الكامل للرسالة هو "قبل فوات الأوان.. رسالة مفتوحة إلى الأمين العام لجماعة العدل والإحسان"، أصدرها الكاتب محمد العربي أبو حزم في طبعة إلكترونية يوم 29 ماي 2020. ثم أعاد نشرها في كتاب ورقي بتاريخ 20 يونيو 2020.

[2] - من أجل الاختصار سنكتفي باستعمال عبارة "الرسالة" للدلالة على كتاب "قبل فوات الأوان".

[3] - صدر في فبراير 2019.

[4] - صدر في فبراير 2020.

[5] - تحدّى الكاتب أطر وكتّاب الجماعة بالإجابة عن سؤال "الصحبة والجماعة" الذي يطرحه. وشخصيا لا أحبذه أن يكون تحدّيا، بما يشي بأننا في تطاحن داخل حلبة لا بد فيها من مهزوم، وإنما أعتبره نقاشا هادئا صريحا في القضايا التي طرحتها الرسالة، لعلنا نهتدي جميعا إلى "التي هي أقوم".

ورأي، في أهم ما جاءت به الرسالة وسابقاتها، بعد أن استنكفتُ، كغيري، عن الخوض في الأمر نهائيا طيلة العام ونيّف الذي انطلق فيه في مساره الجديد.

واسمح لي، بحكم الصحبة والأخوة والمحبة التي جمعتنا عقدا من الزمن، أن أستعمل هنا وفي مواطن مختلفة من هذا البحث صيغة المخاطَب، وأنا أناقشك في عدد من القضايا؛ فهمَك للصحبة في الجماعة والصحبة والجماعة لن يكون إلا واحدة منها، وإن كانت على رأسها. ذلك أن تَمَثُّلك للكثير مما طرحتَ يحتاج إلى تدقيق وتمحيص وفحص؛ كمنهجك في الاستدلال وبناء المواقف، و"تقييمك" لمؤسسة مجلس الإرشاد، ونظرتك لأطر الجماعة وكوادرها وقيادتها، وحال الجماعة التي رأيتها آخذة في الجمود حتى أصبحت -أو كادت- "جثة جامدة"، وانزياحها السريع لأن تخلع عنها رداء الجماعة لترتدي لَبُوس ولِبَاس الحزب، ومسلكَك في هذا الأمر كلِّه منذ البدء حين اخترت إصدار كتاب للعموم بدل طرح الأمر للتداول الداخلي، وتمثُّلك الذهني والسلوكي لقواعد العمل الجماعي ونواظمه.

وقبل ذلك وبعده، أسأل الله لي ولك السداد والرشاد، وأن تكون الغاية طلب الحق والاستمساك به، ولزوم طريقه وأصحابه، لا إثارة الجدل الذي لا ينتهي، والذي لا يُورِّث إلا الكَدَر في القلوب والجحود في النفوس والعناد في العقول.

وقبل ذلك أيضا وبعده، أرجو أن يجد قارئ هذه الكلمات ما ينفعه في استبيان الصواب من الرأي، والسديد من الاجتهاد. أما الراغب في الاستمتاع بمقارعات وتطاحنات تستبطن سوء الأدب، والطعن في كل اتجاه، والفجور في الخصومة، فلن يجد بغيته، هنا في هذه المناقشة على الأقل.

أوّلا: منطقُ الكاتب ومَنْهجُ الرّسالة.. عثراتٌ فادِحَة

أسجل على منهج كاتبنا في فهم القضايا، وفي طريقة التحليل والاستنتاج، وفي القياس والمقارنة، وفي البناء على ما تحصّل لديه من المعلومات... جملة من الاختلالات التي تُخطِّئ صحّة الخلاصات النهائية، والعثرات التي تُفنّد الأفكار المعروضة والنتائج المتوصّل إليها.

وهذه بعضٌ ممّا يُسجَّل على منطق الكاتب ومنهج الرسالة:

1- على مستوى "صلابة" المُسْتَند: أكْثَرَ الأستاذ أبو حزم من قوله: "قال لي أخ عزيز"، و"أخبرني عضو مجلس الشورى"، و"ذكر لي نقيب جهة"... وهي صيغ يمكن القبول بها للاستئناس، وليس لبناء الأحكام القاطعة، إلا وفق شروط خاصة جدا؛ كالاشتهار وبلوغ حد التواتر، أو عدم التعارض مع وقائع ومعطيات أخرى، وما شاكل مما يضبط "حُجِّيَة الكلام".

فمثلا عندما يخبرنا أديبنا أنه سأل أخا عزيزا: "لماذا لا تسأل مجلس الإرشاد عن تأصيل من كلام الإمام لما ذهبوا إليه في مسألة الصحبة؟" فيجيبه: "يا أخي دعني وشأني، أنا لا قبل لي بالمشاكل". ليُعْقِبَ الكاتبُ الواقعة باستنتاج ثقيل "رعب وأي رعب حتى من مجرد طرح سؤال على من عليه واجب التبيان"[6]. فهذا مما لا يستقيم عقلا وعدلا. إذ ليس بهذه الخفّة نستدل على الأحكام ونبني الاستنتاجات.

فإنّنا، وإن صدّقنا صدور مثل هذا الكلام عن أحد الإخوان، فهو غير كافٍ البتَّة لاستصدار مثل هذا الحكم، إذ إننا في حاجة إلى استقصاء واسع لدى الأعضاء والأطر نساء ورجالا لنصل إلى نتيجة "رعب وأي رعب". وإن صدّقنا مثل هذا التقدير والفهم عند صديق كاتبنا وإن كان ثقة، فإننا سنجد مقابله تقديرات وفُهُوما قد تكون بالمئات والآلاف لآخرين لن يجدوا حرجا، إن اقتنعوا بالسؤال وجدواه، في التساؤل والاستفسار.

ومثل هذا كثير. وقد قبل الكاتب بـ"القول" و"الرواية الشفوية" في حالات متعددة على مدار فصول الرسالة، وبنى عليها استنتاجات وقطعيات ليست سهلة، لكنه في المقابل رفض "قول" و"رواية" مجلس الإرشاد في مسألة رغبة الإمام في تغيير اسم المسؤول الأول من "المرشد" إلى "الأمين"، كما حكى، مشددا على حاجتهم الملحّة إلى "الوثيقة المكتوبة" من الأستاذ ياسين. فلماذا لم تتشدّد الرسالة في حالاتها الأخرى الكثيرة وقبلت بـ"الكلام"، في حين رفضت في حالتنا هذه "كلام" مجلس الإرشاد؟

وَرُبَّ من يذكّرنا بسريان العمل بشهادة الشهود واتخاذها حجة وسندا، وهذا صحيح، لكنه، وخاصة في دائرة التقاضي العادل، يكون محاطا بشروط صارمة، منها مقابلة الشهود بالشهود، ومواجهتهم مع المعنيين الأصليين بالقضية، وأداء اليمين، وعرض مضامين الشهادة على باقي وقائع وتفاصيل الحادثة، ومساءلتهم من قبل هيئات الدفاع... وغيرها كثير مما يجعل القياس غير جائز هنا.

<u>2- على مستوى التعميم والمبالغة</u>: حبلت الرسالة بالكثير من التعميمات والمبالغات، في العديد من الأحداث والتفاصيل. وإن كان الأمر في كثير منها قد يبدو فرعيا وثانويا، لكن من تلكم التفريعات والجزئيات تتشكّل "الصورة الكلية" التي عليها مدار الخلاف والنقاش. ناهيك عن أن المبالغات عموما، إن لم تَتزوَّد بالقدر الكافي من الاحتياط، لا تضفي على منهج البحث إلا المزيد من الضعف والتهافت.

فمثلا، الاتهام بأن الكبر والتسلط والأنانية وحب الرئاسة لا يزال إحدى أخطر الأمراض في صفوفنا[7]، بهذا الإطلاق والتعميم، يحتاج إلى "دليل صلب". والعدل والإحسان، وإن كانت جماعة من الناس تعرض على الملتحقين بها أولا -جُدُدا وقُدَامى- قبل غيرهم، مشروع تربية النفس وتهذيبها، مستحضرة ورود أن يكون فيهم

[6] الرسالة، ص 16.

[7] - الرسالة، ص 102.

وبينهم من تصيبه مثل هذه الأمراض، التي يحاربها ويعالجها هذا الوسط التربوي الجهادي، فإن ثَلَمَة المبالغات تصورها هنا جماعة من المتنافسين المتسارعين المتصارعين المتسلطين! وهو ما تعززه مقاطع كثيرة من الرسالة.

ومن ذلك، قول الرسالة: إن التدوينات التي يُواجِه بها أبناءُ الجماعة الاستبدادَ في الواقع الافتراضي سقفها وأعدادها "أدنى بكثير" مما كُتِبَ عن كاتبها[8]. وبعد التأكيد القاطع الذي لا لبس فيه ولا تردد، على رفض أي نوع من التجريح والسب والقذف في شخص أبي حزم، مع حق الجميع في مساءلة ومناقشة أفكاره، ألا نرى أنها مبالغة كبيرة، وكبيرة جدّا، مثل هذا القول؟ هل حقا تدوينات المئات، إن لم يكن الآلاف، من أعضاء الجماعة في هذا الفضاء الأزرق وأمثاله، على مدار العام وأيامه، وهي تتفاعل مع مختلف الأحداث الاجتماعية والسياسية "أقل بكثير" من التدوين عن الكاتب وكتابه، مع أنه ليس "موضوعا" يوميا حاضرا كل العام؟

3- على مستوى "صِحّة" المعلومة: غامر الكاتب أيضا حين بنى أحكاما متفاوتة في حجمها على معلومات غير مؤكدة وغير موثوقة، بل مغلوطة أحيانا، وهو ما أثّر بشكل مباشر على ما قدّمه من استنتاجات وآراء. وهذان نموذجان:

- في سياق محاولة تبيان أن "شيئا ما"، توحي الرسالة أنه ليس على ما يرام، كان يجري إعداده على قدم وساق في آخر حياة الإمام، وخاصة على مستوى القوانين المؤطرة لمؤسستي الأمين العام ومجلس الإرشاد وطريقة انتخاب المسؤول الأول للجماعة، قطع أبو حزم بأن مجلس الشورى لم ينعقد في آخر ثلاث سنوات من حياة الإمام المؤسس، مؤكدا أن آخر دورة عادية (13) عقدت بتاريخ 27 و28 يونيو 2009 وأن الدورة الموالية لها كانت استثنائية ولم تعقد إلا في تاريخ 21 و22 و23 دجنبر 2012 لترتيب أمر الجماعة وقيادتها عقب وفاة الإمام ياسين، وأن الدورة العادية (14) التأمت في يونيو 2013.

وهذه معلومة غير صحيحة، أسّس عليها الكاتب أحكاما ثقيلة اتجاه مجلس الإرشاد ومجلس الشورى وخط الجماعة خاصة التربوي منه؛ ذلك أن مجلس الشورى انعقد في دورة استثنائية (دورة سيدي أحمد الملاخ) يوم السبت 13 جمادى الآخرة 1432 الموافق 7 ماي 2011 والإمام ما زال حيّا يرزق في هذه الدنيا. ناهيك عن عَقْدِ لقاءات جامعة، هي أشبه بمجلس شورى مصغر يضم تمثيلية لمؤسسات الجماعة المركزية وفاعلين، مرة كل شهرين تقريبا لمواكبة حراك 20 فبراير، فقد الْتَأَمَتْ خمسة لقاءات شورية في ظرف عشرة أشهر، وكل ذلك على عين الإمام رحمه الله. وهو ما لا ينسجم مع تلميحات الرسالة إلى "احتكار" القرارات والقوانين. وحقًّا "قلّة المعطيات تؤثّر على الحكم".

- وفي سياق ترسيخ صورة الجماعة الآخذِ نجمُها في الأفول، أطلق الكاتب سلسلة من الأحكام غير المؤسسة على شيء مادي ملموس يُقدِّمه لقرّائه، أو معطيات علمية مقنعة لمن اطلع على مقولاته، من ذلك قوله بأن دعوة

[8] - نفسه، ص 50.

العدل والإحسان لم يلج رحابها على مدى سنوات وسنوات أكثر ممن غادرها "فاترا أو موقوفا أو مفصولا أو مُقطَّعا قلبه أو مكسورا خاطِرُه أو يائسا أو مهمَّشا أو ناقما أو منهكًا؟"[9]. وهنا إن كان أديبنا يريد لفت الانتباه إلى أن التنظيم لا حرص فيه على المؤمنين (الأعضاء) وغنائهم، والاعتراف بما قدموا وبذلوا وضحوا، واحترام مساراتهم في الحياة وفي الإقبال على الله، سواء ظلوا في ذات خندق التربية والدعوة أو غيّروه لأسباب مختلفة، قد تكون منها أخطاء بعض المسؤولين والمؤسسات، أقول إن كان الأمر كذلك فإن مثل هذا القول الوارد في كلام أخينا العربي مرسل وهشّ، وغير مسنود إلى إحصاء دقيق أو استطلاع منضبط أو ما شابه، مما تؤسس عليه الدراسات المتماسكة استنتاجاتها وقراءاتها.

4- على مستوى التَوَسُّع في التأويل: لم يكتف الأستاذ أبو حزم بالبناء على ما جمع من تصريحات ومعطيات وتحليلها وعرضها بما لها وما عليها، بل إنه وقع في محذور التَوَسُّع في التأويل الذي يبتعد بالخطاب عن مراده ومعناه، حتى إنه أخرج -في حالات- الكلام عن قصد أصحابه، وحمَّلهُ، عُنوة، ما لا يحتمل.

وأكتفي هنا بضرب مثال من تأويله تصريح الناطق الرسمي الأستاذ فتح الله أرسلان، بخصوص شروط الجماعة لتأسيس حزب سياسي[10]، والذي ذكر في معرض حديثه المثل المغربي الدارج "حتى قطّ ما تَهْرَب من دار العرس". ليكشف الكاتب لنا أن القطط لا تجلس إلى السُفَر مع المدعوين، بل "تنتظر خارج الحفلة ما يجود به عليها بعض رقاق القلوب من فتات الطعام، أو تَتَقَمَّمُه بعد ذلك في حاويات النُفَايات!"، وليمضي مسترسلا في هذا التصوير؛ راسما حال القطط وهي "تتشمّم الأرصفة وتتحسّس الأبواب وتلعق العتبات وحاويات القمامة على هوامش الولائم"[11]. ليتساءل مستنكرا "أفإلى هذا السفول والدونية والحقارة بلغت منزلةُ مشروع الإمام المجدد العظيم"[12]!!!

إذا سألنا أيّ مغربي، متعلمّا كان أو أمّيّا، عن مقصود المغاربة حين يردّدون هذا المثل الشهير، لأوضح بيسر لا لبس فيه، إجماعهم على معنى واضح مستقر في أذهانهم يرومونه، وهو بعيد كلّ البعد عن هذا التصوير الغريب الذي قدّمته الرسالة، والذي زادته لغة القمامة والأرصفة والحاويات والتشمّم ولعق العتبات التي صِيغَ بها، هجانة وشذوذا.

5- على مستوى توظيف القياس: من الأخطاء المنهجية التي وقع فيها الكاتب، بحسب رأيي، طريقته في القياس، فقد وقع في ما يصطلح عليه المناطقة وعلماء الكلام "القياس الفاسد". وهذا الخلل، كما هو معلوم، يُوهِمُ

---

[9] - الرسالة، ص 46.

[10] - نرجع في محور مستقل لنناقش ادعاء الرسالة أن الجماعة ماضية في اتجاه تأسيس حزب بشروط النظام لا بشروطها، ونقف عند فهم صاحبها لهذا التصريح ولغيره.

[11] - الرسالة، ص 86.

[12] - نفسه، ص 85.

صاحبه بصحة الاستنتاج، حين يعمد إلى مقابلة الفكرة بما يظن أنها من بنات جنسها أو من نظيراتها في نسق مقابل، غير منتبه إلى الفروق الجوهرية بينهما أولا وبين نسقيهما ثانيا. ولهذا قال الأولون "لا قياس مع وجود الفارق".

من النماذج على ذلك، حين قاسَ الكاتبُ تعاملَ قيادة الجماعة اليوم مع كتاب "في الحاجة إلى صحبة رجل" على تعامل الإمام مع رسالة "الزفرات"[13]، وهو قياس لا يليق لاختلاف جوهري واضح. فالمسلك الذي سار عليه الكاتب في رسالته إلى الإمام اتّسم بالاقتصار على حصر الرأي والنصح والنقد في "الداخل"، أي الإبقاء عليها في حدود مؤسسات الجماعة العليا (الإمام ومجلس الإرشاد). وقد ذكر لنا بأنه لم يطبع من "الزفرات" إلا نسختين أو ثلاث، واحدة في مكتبة الإمام والأخرى بين يديه[14]. وهذا مسلك لا غبار على صِحَّته حين ينصح الرجل لمن هو معهم فيما همّه وأهمّه. أما ما انتهجه حاليا في الكتاب، ثم لاحقا في الكتيب والآن الرسالة، فهو "نشر للغسيل" في أفضية الناس، وبِلُغة، وخاصة في مكتوب "قبل فوات الآوان"، هي أقرب إلى التشهير، إن لم تكن هي عينه.

ومن ذلك أيضا، قياس "رفض الجماعة" نشر رسالة تخصُّها في الفضاء العام على فعلها هي نفس الأمر عند نصحها، بقيادة إمامها، الملكين الحسن الثاني ومحمد السادس. وهو قياس آخر لا يصح، للفروق الواضحة بين الأمرين؛ أحدهما خاصٌ بكيان واحد يعني جمعا من الناس، وثانيهما عامٌ يهمُّ أمَّة بأسرها.

6- على مستوى لغة الكتابة: على خلاف اللغة الشاعرة الرشيقة المتجمّلة بالأدب والمتزينة بعفيف الكلام، والتي كان يُفترض أن ينحاز إليها كاتبنا باعتباره فنانا وأديبا وشاعرا وموسيقيا، وفوق هذا مؤمنا وطالب إحسان، انحدرت الرسالة مع الأسف الشديد، في الكثير من فصولها، إلى لغة تراوحت بين الصدامية والصراع من جهة والسخرية واللّمز من جهة ثانية.

وإلى جانب الصورة المستهزئة التي رسَمَتْها الرسالة عن القطط، والتي ذكرناها، فمثلا من يخالف كاتبنا الرأي من أطر وأعضاء الجماعة فإما يَغُطُّ في نوم عميق[15]، أو أنه عاش في الجماعة السنين الطويلة مُعطَّل الهِبَة التي وهبه الله إياها في رأسه[16]، أو هي الألسنةُ المدَّاحة القاطرة عسلا[17] (للمسؤولين يقصد).

وسيقف قارئ هذه المقالة على الكثير من نماذج السخرية والغمز واللمز، التي جاد الكاتب علينا بها. كما سيلمس لغة حادّة صدامية تتصارع مع من يَفْترض أنهم في الضفة المقابلة.

---

[13] - كُتبت "الزفرات" كما يخبرنا كاتبها أواخر يونيو 2001، وسُلّمت للإمام عبد السلام ياسين رحمه الله ربما في نفس الشهر.

[14] - قبل فوات الأوان، ص 30.

[15] - قبل فوات الأوان، ص 96.

[16] - نفسه، ص 91.

[17] - نفسه، ص 24.

ثمة ملاحظات أخرى على منهجية الرسالة ومنطق صاحبها؛ كفلسفة استدعاء الدليل، كما في حالة الإتيان برأي توفيق بوعشرين في مسألة الاحتفاظ بلقب "المرشد العام" للإمام، ليعزز به رأيه، مع الاختلاف الكبير بين قصد الإعلامي السجين أطلق الله سراحه ورأي كاتبنا العربي. أو التعارض الذي اعترى بعض الأحكام، كواقع المجال الفني المضطرب الذي كان يسير على غير هدى لحظة كتابة "الزفرات" إلى الإمام، ليصبح هذا الواقع فجأة "سلفا جميلا جيدا" حين قاس الكاتب عليه الواقع الفني اليوم.

ثمة ملاحظات أخرى، ولكن ما ذكرناه يكفي للوقوف عند طبيعة منهج الكتابة، ومنطق الكاتب في بناء الأفكار والتحليل والاستنتاج والخلوص إلى الأحكام، وهذا ما أثّر في رأيي على نظرته لمجمل القضايا الرئيسة التي جاءت بها الرسالة.

ثانيا: مَسْلك مُستغرب

"فمع كامل الحسرة وتمام الأسف، ليس في تنظيمنا "ما" أو "من" نلجأ إليه ليسمع مقالتنا، ناهيك عن أن يُرَتِّبَ على الشيء مقتضاه"[18].

كان هذا هو جواب الأستاذ أبو حزم عن سؤال "الغاية والجدوى من نشر ما يخص الجماعة في رسالة مفتوحة وإتاحته للعموم، مع ما لذلك من تداعيات مؤلمة، بدل مراسلة المعنيين عبر قنوات التنظيم"[19]. وهو السؤال الذي اعتبره مشروعا مكرورا، مُنَوِّها إلى أن في الرسالة البيان المفصل.

وإذا كانت هذه المقالة ستتحرَّى "البيان المفصل" وتُسائله، فإنها تودُّ أن يصبر صاحب الرسالة، ومعنا القرّاء، حتى نعيد التذكير بـ"بديهيات" العمل الجماعي، ونضعها صُحْبَة "البيان" أمام عقولنا وأعيننا، لنتمكن من تقويم واع لهذا الخيار، وتشكيل رأي عادل اتجاه هذا المسلك.

مما استقر به العمل في جماعة العدل والإحسان، وكاتبنا أدرى به مني، حرصُها على الطابع الداخلي لقضاياها الخاصة، أي فتح مجالسها للأعضاء المُمَثَّلين فيها لخوض النقاشات وفتح القضايا وتشريح الملفات، داخل تلكم المؤسسات، وليس الخوض فيها في الأَهْوِية[20] الطلقة والأفضية[21] المفتوحة. وهو خيار تبنّته الجماعة، وما تزال، ردحا طويلا من الزمن، صاغته على عين مؤسسها رحمه الله وعلى وضوح من أمرها، لما يُفضي إليه من إيجابيات ومكاسب وما يدفعه من سلبيات ومحاذر.

---

[18] - نفسه، ص 7.

[19] - نفسه، ص 7.

[20] - الهَواء، الجَوُّ ما بين السماء والأَرض، والجمع الأَهْوِيةُ. لسان العربي، ابن منظور.

[21] - الفَضاءُ: المكان الواسع من الأَرض. يقال: قد أَفْضَيْنا إِلى الفَضاء، وجمعه أَفْضِية. لسان العربي، ابن منظور.

ومما استقر أيضا، في فهم الوَارِد على الجماعة، فبَلْهَ المنخرط في مشاريعها المُتبَجِّر في تصورها، أن العدل والإحسان بقدر قَطْعها المبكر، المحسوب لها، مع خيار العمل السري ومطبّاته وكواليسه المُظْلِمة، بقدر تأكيدها على أن "المجالس أمانات"، مُنبِّهة أعضاءها من مزلق إفشاء وإذاعة وإطلاق الألْسُن بما حقه أن يظل خاصا، وذلكم من أبسط مستلزمات العمل في جماعة. حتى باتَ من التوليفات البسيطة التي نحفظها عن ظهر قلب، تمييزنا بين "السرية"، التي رفضها الإمام وجعل لها قرينا لا ينفك عنها هي "لا" النافية، ثم رقّاها لأن تتوسّط لاءاته الثلاثة الشهيرة، و"الأسرار"، التي يُؤتَمن عليها المؤمنون في عملهم، وهذه الأخيرة فيها من الشِّدَّة على النفس، التي تميل إلى الخوض في كل حديث وإن كان لا يعنيها، ما لا يخفى.

ونعم، ثمة مناهج أخرى يعتمدها غيرنا، فكل يعمل على شاكلته، منها هذا الانفتاح إلى الحدّ الذي تبلغ فيه الخلافات الداخلية بين الرموز والقادة والمؤسسات كلَّ مَسْمع، ولا يَبقى للمجالس الداخلية شيء اسمه خصوصيات ينبغي كتمانها، ليصبح هذا الكيان زجاجا شفّافا يُرى جلّ ما بداخله. فتُستغَلّ أوضاعه، وتُوظّف حالته، وتُعزّز خلافاته بأيدي المتربصين به، حتى يكاد يَنْشَطر على نفسه حين يَعْسُر على قيادته حفظ وحدته، أو تتولد منه الفرق والتنظيمات المستقلة، بعدما قيل أوّل الأمر إنها حالة صحّية لا تعدو أن تكون آراء وتيارات داخلية تتدافع، وبعد أن كان الحال في البداية علامة على رسوخ الشورى والحرية وتوظيف الآليات الديمقراطية! وأمامنا في الساحة المغربية، من داخل الحقل الإسلامي ومن خارجه، تجارب عانت وتعاني من هذا النهج، ما هو متاح للتأمُّل والنَّظر.

المهم، وكي لا أطيل، ومع احترام كل الاختيارات التي هي أمام اختبار التجربة والميدان، فالمسألة ترتبط بخيارات ينتهجها الناس بناء على اقتناع وتقليب نظر واطمئنان في النهاية لواحد منه.

وأنت أستاذ أبو حزم جزءٌ من تنظيم اختار نهجا واضحا، واستقر عنده هذا الاختيار حتى بات من المعلوم في قناعته وممارسته بالضرورة، فأستغربُ حقّا هذا المسار الذي مضيْتَ فيه، حين اخترت أن تقفز على خيار النقاش والتناظر الداخلي؛ فتعرض رأيك وتقدّم وجهة نظرك وتحشد أدلتك، ويجري ذلك، كما يحدث في التنظيمات المعتبرة، داخل المؤسسات المعنية، تقلّبُ النظر، وتتأمّل، وتفحص، وتَخِير، وتستشير، وتعزم، وتختار، وتتوكل على الله.

إن خيار "تصدير" النقاش في مسألة تخصّ جماعة العدل والإحسان[22] وسيرها التربوي، إلى فضاء عام مفتوح على الجميع، بمن فيهم الخصوم وكذا المتربصون بـ"ما تريد إصلاحه قبل فوات الأوان"، ثَلَمَةٌ كبيرة وخلل عظيم وقعْتَ فيه، واختيار غير مبرر ولا مفهوم، خاصة بالنظر لموقعك وما أنت عليه.

[22] - لست أدافع عن فكرة انحباس كل النقاشات وفي كل القضايا وفي سائر الأوقات في الفضاءات الداخلية، بما يفيد أن النقاش في الفضاءات العامة المفتوحة مرفوض جملة واحدة، فهذا لا يقول به أحد. ولكن، من يرى من نفسه الأهلية العلمية لنقل "أفكار" و"رؤى" إلى التداول المفتوح،

وهنا نرجع إلى جانبٍ من "البيان المفصل"[23]، الذي وعدت في ديباجة الرسالة أنك ستوضحه، والقائم على الفكرة التي كرّرتها وردّدتها كثيرا وعلى مدار الكتاب وبصيغ وألوان مختلفة، وهي الانغلاق التام الذي بات عليه التنظيم كما ورد في الرسالة، وهو ما دعاك إلى هذا الخيار الذي مضيت فيه، "فلم يبق لنا من سبيل إذن إلا أن نتجاوز التنظيم ورموزه، فنخاطب من خلال سماحة الأمين العام، عامّة إخواننا وأخواتنا رَأْسا"[24].

وهنا لندقق في مقولة/حقيقة "لم يبق لنا من سبيل".

إن صحّ القول، وهو لا يَصِحُّ عندي، أن تنظيم جماعة العدل والإحسان بتلك "البيروقراطية" التي رسَمَتْها الرسالة، والتي تحول دون وصول النصائح والتظلمات إلى الجهات المعنية، وهو ما قد يحول دون وصول عموم الأعضاء إلى القيادات، فإن قُدْرَةَ الكاتب على تجاوز هذه "البيروقراطية" و"انسداد مسالك التنظيم" كانت متاحة وغير خافية. وقد أتاحتها له صفتان لا غبار عليهما:

- باعتباره كاتبا، اشتغل، مشكورا، على سيرة الإمام ياسين، طيلة سبعة أعوام ونصف، والتقى بمعظم أعضاء مجلس الإرشاد، ناهيك عن قياداتٍ غيرهم، فجالسهم وحاورهم، كما هو معروف ومشهور، وكما ذكر في كتاب السيرة، وكما حكى هو نفسه في "الرسالة" أثناء حديثه عن أخلاق وخصال الأستاذ عبادي[25].

- وباعتباره إعلاميا، أمضى ثمانية أعوام ونصف العام في إعلام الجماعة، قبل أن يغادره، بحسب ما خبّرنا. مما هيّأ له الفرص لملاقاة قيادات الجماعة ومحاورتها[26]، وهو ما قد لا يتاح لعموم الأعضاء.

وعليه، فالمسار كان سالكا أمام كاتبنا ليُفاتح قيادة الجماعة، أمينا عاما ومجلس إرشاد، وغيرهما من المؤسسات المركزية، في هذا الموضوع الخطير الذي بدا له أن الجماعة قد "حرّفت فيه على غير هدى من وصيّة الإمام"، كما كان متاحا له عرض الأمر على أكثر من مسؤول ومؤسّسة، وتقليب الموضوع هنا وهناك، وإمعان النظر القلبي والعقلي فيه وفي غيره من القضايا التي عرضها الكاتب في رسالته المفتوحة، ولكنه اختار مسلكا مستغربا على منهاج العدل والإحسان.

ولعل السير التدريجي مع صفحات وفصول "قبل فوات الأوان"، يُظهر أن أخانا أبا حزْم كان قد حزَم رأيه وجمع أمره وقرّر قراره، لأن الواقع الذي صوّره لا يجعل لكلمة "قبل" في تلك الجملة أيّ "حقيقة". بل إن الأوان كان

معتقدا في ذاته المثقف القادر على التطوير والتجويد والتوعية وإن من خارج المؤسسات (في استدعاء شبيه بثنائية المثقف والتنظيم)، فإنه يحيط مسلكه هذا بجملة شروط، منها: لغة التداول المتسامية، ونقاش الفكرة لا المؤسسات والقرارات والأشخاص، والتسلح بالتنسيب، والابتعاد عن الطعن في المخالفين، وتجنب القضايا الجدالية في الأزمنة الحساسة... وغيرها مما يتحسسها العقل الناضج ويركن إليها.

[23] - نرجع إلى جوانب أخرى مختلفة منه على مدار محاور هذا البحث.

[24] - قبل فوات الأوان، ص 7.

[25] - نفسه، ص 9.

[26] - قبل فوات الأوان، ص 8.

قد فات بالنسبة له، ليس فقط على مستوى ما آلت إليه الجماعة، ولكن أيضا على مستوى الثقة في قيادة الجماعة.

ثالثا: العمل الجماعي.. نواظم وضوابط

قريبا من هذا النقاش الذي نحنُ بصدده، يعلم الجميع أن للعمل الجماعي مقتضيات ومستلزمات، وأن الإنسان الفرد حين يلج، عن طواعية واختيار واقتناع، عملا جماعيا ما، فإنه يدرك تبعات هذا الخيار و"يُرَتِّبَ على الشيء مقتضاه".

في العمل الجماعي تلتقي العادات والطباع والذهنيات والنفسيات والشخوص والأعراف والقناعات والثقافات... ويُفترض في المؤسسات والبرامج التربوية والتعليمية والتثقيفية والتوعوية، أن تجعل من تلكم الألوان المختلفة قوسَ قزحٍ يسُرّ الناظرين وهُوَ يُرصِّعُ سماء الحركة، وأن تصنع من تلكم المواد المتنوّعة بِناءً محكما وصفّا متراصا، تنصهر فيه القلوب وتنسجم فيه العقول، قال تعالى "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص"[27].

أَيْ نَعم، تتدافع الأفهام وتتباين التقديرات وتتمايز الاجتهادات، وتلكم حين يُحْسَن تَوْلِيفُها وتدبيرها حياة أيّ جماعة وغِناها، لكن كل هذه الأنهُر يُفترض أن تلتقي في النهاية عند بحر إرادة موحّدة ويَمِّ قرار جامع، فالقاعدة الذهبية يعلمها الجميع "الرأي حرّ والقرار ملزِم". وإلا فإننا بصدد شيء آخر غير العمل الجماعي.

ولذلك كان العمل الجماعي، التطوُّعيّ منه خصوصا، صعبا على النفوس؛ فصاحبه مطالب بالعمل والاجتهاد والكدّ والسعي دون مقابل مادّي، وهو مع هذا مُساءَل عمّا أوكله إليه إخوانه من مهام، كما أنه في كثير من الحالات قد يكون مرؤوسا ومأمورا وفي آخر الصف أو وسطه بعيدا عن الواجهة والمقدمة (والعجب أنه قد يكون فائزا ورابحا أكثر من غيره إن كان يتاجر مع الله). وصاحبنا هذا، قد يُحْسِن في حالات عرضَ رأيه، الذي هو عنده أنفذ رأي، ولكنه ومع ذلك قد لا يُقنع "مجموع العقول" التي تتشكل منها المؤسسة التي ينتمي إليها، ومن ثمة لا يُعمَل بمقترحه وفكرته... ولذلك يجد الكثير من الناس راحتهم في الخلاص الفردي، وآخرون يكتفون بالملاحظة من بعيد؛ ينتقدون عمل التنظيمات والحركات والجماعات ويُوَجِّهون ويُنبِّهون، وبعضهم متكئ على أريكة الباحث أو المراقب، نائيا بنفسه عن معمعان التربية والتأطير والتعليم والبناء والسعي في الأنفس والآفاق، من أجل صنع شيء مادي ملموس يؤثر في حياة الجماعة البشرية.

[27] - سورة الصف، الآية 4.

وأنا إن كنت هنا أُبَيّن "كُلفة" العمل الجماعي المنظَّم، فلا أبخس البَتَّةَ جُهْدَ وبذْل وإسهام أيٍّ كان، وبأي شكل كان. فكلٌّ مُيسَّر لما خُلق له، وكلٌّ يؤدّي دورا، إنْ صَلُح، في مجموع بناء الأمة إن شاء الله.

في ظل هذا المنطق، المستقر في الأذهان السوية، أسّس الإمام المجدد رحمه الله جماعته وتنظيمه على نواظم، هي أشهر من نار على علم عند أتباعه ومتابعيه، أسماها النواظم الثلاث. ومن عجائبها وجمالها أن جعل كل واحدة منها تخاطب مُكوِّنا من مكونات الإنسان الذي هو ركيزة البناء التنظيمي، فالحبُّ في الله الذي هو منطلق البناء مقرُّه القلب، والشورى والنصيحة التي هي عصَبُ التنظيم وعَجَلَتُه موطنها العقل، والطاعة التي معها ينزل الصفُّ إلى ميدان التنفيذ مناطها الجسد.

ومن ثمّ، سواء بالنظر إلى ما هو عامٌّ مشترك يحكم العمل الجماعي عند الناس، وما هو خاصٌّ زيّن به الإمام ياسين جماعة العدل والإحسان، يتَّضح أن المسارات السالكة للآراء والاجتهادات والنَّصَائِح الخالصة، وبعد أن تنطلق من سلامة النية في القلب وتعظيم المنصوح لهم ومحبتهم، تستقر طويلا عند التداول الشوري، لتَعرضِ الفكرةُ نفسَها أملا في الإقناع، وتُمتحن في آليات النقاش ومؤسسات القرار، وحينها إن حصَّلت الإجماع أو أغلبية الآراء، نَهْنَأُ بها وبصاحبها، حين نُجْمِع أمرنا عليها في ساحة الفعل. أما إن سقطت الفكرة في اجتياز هذه "المسطرة المنهاجية"، فالطبيعي أن ينزل صاحبها عند رأي أصحابه، وإلّا ألزم نفسَه ألّا يقبلَ منه إخوانُه حينَ رفضَ هو أن يقبلَ منهم.

ولنتصور أن كل صاحب رأي، في التربية وفي السياسة وفي البناء التنظيمي وفي البرامج التعليمية... جاء بما عَنَّ له من رأي، وراعى جزئيا ما أراده الإمام لجماعته من التزام بالنواظم، لكنه اكتفى بِنَاظِمَتَيْ الحب والنصيحة فقط، متمرَّدا على ناظمة الطاعة رافضا لها، لأصبحنا أمام كيان متفرّق ضعيف لا يقدر على شيء حِينَ يَحِينُ جدُّ الفعل والتنفيذ. هذا حالنا، إن اختلّت ناظمة واحدة، فكيف الحال بمن خرقها جميعا وأساء التعامل معها، وهذا ما أجدني مضطرا للقول إن أخي العربي وقع فيه مع الأسف.

إن المنطق السوي، ونحن نضع نُصْب أعيننا ما سبق أعلاه من نواظم وضوابط، يقول إنّ من ظهر له في مرحلة من مراحل انتمائه أن المحضن الذي ينتمي إليه غيّر جِلْده وبدّل مساره وحرّف مشروعه، وأنّه، بحسب ما يرى دائما، في الوقت الذي نصح وأشار لم يُقتنع برأيه ولم ينزل القوم عند كلامه، لا يملك، إن أصرّ على رفض رأي إخوانه المخالف لرأيه، إلا أن ينزل من سفينة هذا الكيان إلى شاطئ يطمئن إليه، واضعا نصب عينيه قول الحق سبحانه **" وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**[28]. وليصنع -صحبة من اقتنع بطرحه- مركبا آخر، يُبحر بهم سلوكا إلى الله ودعوة في الأمة. أما مواصلة المناكفات والمشاكسات، في صورة هي أقرب إلى رغبة

[28] - سورة البقرة، الآية 237.

في إرغام مخالفيه على اتباعه، فهو لعمري ممّا لا يستقيم مع العقل والاعتدال والاتزان، فـ"أعمال العقلاء منزهة عن العبث".

رابعا: قيادة الجماعة.. بين النقد والتخوين

يمكنني أن أقول، وبكامل الحسرة والأسف، إن الرسالة طَفَحَتْ بسيل عارم من الطعن والتخوين والتشكيك والاتهام لقيادات الجماعة، حتى لم يعد ثمَّةَ التباس في أن الأمر لم يكن "نُصحا قاسيا" أملته المسؤولية الأخلاقية والعلمية على الكاتب، بل إنه "طعن صريح" لا غبار عليه.

وحتى لا نُقوِّل الرجل ما لم يقل أو نتَجَنَّى عليه، سأجعل من نصوصه، الناطقات الواضحات، في هذا المحور والذي يليه أيضا، فيصلا وحكما، نحتكم نحن وإياه والقرَّاء إلى دلالاتها ومُسْتَتْبَعَاتها. ولن يكون لي حضور إلا عبر الربط والإيضاح الضروري، قبل أن أدلي في نهاية كل محور من المحورين بتعليقات سريعة.

وهذه بعض نصوص شاعرنا، الذي يُفترض أنه يزن كلماته بميزان دقيق، خطّها إلى جهات أربع، أعرضها تباعا:

مجلس الإرشاد

- إننا اليوم بإزاء "مجلس إرشاد قوي وعتيد يقبض على زمام الأمور بيد من حديد"[29].

- ميزانُ هذا المجلس في النظر إلى الرجال معتلّ "طبيعي أن يغدو المدّاح مُرادا مقرَّبا واللائم الزافر الشاكي منبوذا مستبعدا مطرودا"[30].

- بل إنه أزاح بالتدريج، بفعل فاعل، كفاءات أخرى ظهرت[31].

- وهو يهضم الحقوق "طبيعي ألا يجد المشتكي بأحد أعضاء مجلس الإرشاد -إلى اليوم من ينصفه-، ما دام هناك نوع من "التضامن الإرشادي" يستحيل معه أن يسترجع عضو في الجماعة حقه المهضوم، لمجرد أن خصيمه عضو في مجلس الإرشاد"[32]!

---

[29] - الرسالة، ص 68.

[30] - الرسالة، ص 24.

[31] - نفسه، ص 71.

[32] - نفسه، ص 38.

- وأعضاؤه "إكليروس" يحتكرون وثيقة تخص تعديل طريقة اختيار أمين عام الجماعة[33]. والحقيقة، تخبرنا الرسالة، أننا في ظل قائد واحد يحكم من وراء الستار وليس قيادة جماعية[34].

- وبلغ الأمر بمجلس الإرشاد إلى أن "أصبحت له الولاية على الإمام المرشد المؤسس نفسه"[35].

- وفي محاور مختلفة من الرسالة، جرى التشكيك في نياتهم وتخوينهم، وبلغة واضحة، تفيد بأنهم وصل بهم الأمر إلى أن استبطنوا غشّ الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله[36].

- ومجلس الإرشاد قام أيضا بـ"انتحال صفة" روحية لا عقوبة لها في الأرض[37]. وهو مجلس يوظف الصّفة المفرغة "الدلالة على الله"، التي لا يقوم بها "للسبب الواضح، وهو فرض سلطته المعنوية للاستفراد بتدبير شؤون الجماعة بقيادة جماعية متساوية الأكتاف ليس فيها مكان لرجل"[38].

- ولذلك فهدف "الرسالة" ألا تمنح "الرَّعاعَ[39] فرصة وأد مشروع الإمام رحمه الله"[40].

- وقامت بالسخرية منهم "ويبدو أن التاريخ عندها (قيادة الجماعة) توقف عند حدود الزمن الذي كان فيه جدار برلين لا يزال على حاله صامدا في وجه رياح الحرب الباردة، وعند المرحلة التي كان فيها نيكولاي تشاوسيسكو لا يزال متحكما في زمام نظامه العتيد مستندا إلى قوة الأخ الأكبر الأحمر"[41]. وواصلت "وليبشر أعضاء مجلس الإرشاد بطول سلامة"[42].

- وكرّر الكاتب غمزهم ولمزهم مرارا بعبارة "يوم كان في بيتنا رجل" في إشارة للإمام.

- والأدهى أن طوامّ (الكبر والأنانية وحب الرئاسة) تغلغلت في نفوسهم[43].

<u>الأمين العام:</u>

---

[33] - نفسه، ص 77.

[34] - نفسه، ص 99.

[35] - نفسه، ص 66.

[36] - منها مثلا الصفحتان 64 و65.

[37] - نفسه، ص 67.

[38] - نفسه، ص 68.

[39] - الرعاع في اللغة، سفلة الناس وغوغاؤهم.

[40] - الرسالة، ص 41.

[41] - الرسالة، ص 55.

[42] - نفسه، ص 59.

[43] - نفسه، ص 103.

وعلى خلاف تلك الكلمات الطيبات التي قالها الكاتب في بداية الرسالة، مُبَجِّلا الأستاذ محمد عبادي أمين عام الجماعة، فإن النهايات لم تكن منسجمة البتة مع المقدمات، بل لقد هَدَمَتها هَدْمًا.

- فتعقيبا مثلا على من قال للكاتب: إن كنتم تبحثون عن رجل تصحبونه؟ ها هو ذا الأستاذ محمد عبادي! (ولا أدري محلّ علامة التعجب هذه، أهي تشكيك في أهلية الرجل أم ماذا؟). نبَّهَنا إلى أنه "ليس من مسؤوليات ووظائف أي أمين عام حزب سياسي. فما زاد دستور الجماعة أمينَنا العام فوقها قدْرَ قِطْمِير"[44].

- وفقط لأن الوصف تغيّر إلى "الأمين العام" عوض "المرشد العام"، انتقل الأستاذ عبادي من "الرمز الرباني إلى الزعيم السياسي"[45]!

فجأة، هذا الرجل الذي أخذ العلم عن علماء أجلاء وتخرج من جامعة القرويين، وعرفته مساجد وجدة وسطات سنوات طوالا داعية ربّانيا، ثم أسّس الجماعة مع الإمام صحبة جمع من الرجال، ثم توسط مجالس العدل والإحسان ورباطاتها ونصائحها بروحانيته وكلامه الرباني الذي يصدر من القلب ويدخل القلوب بانسياب، أصبح أمين عام حزب! يترأس حزبا سياسيا خبزيا! ولا يمكنه ممارسة مهام الإرشاد والتربية والتسليك!

- ثم إن الأمين العام ارتضى لنفسه "منصبا بروتوكوليا"[46]!

- وفي الوقت الذي رجا أبو حزم في بداية الرسالة أن يستدرك الأمين العام "قبل فوات الأوان"، نبّهته الوثائق والوقائع، فقال لإخوانه وأخواته في الجماعة ألا ينتظروا من أمينهم "شيئا بما وُضِعَ في يده من صلاحيات شكلية وقدرة مفقودة"!

<u>عموم الأطر والقيادات والمؤسسات</u>

- فمجلس الشورى لا حياة فيه؛ "أين أنتم يا من لا نرى منكم إلا صوركم في موقع الجماعة -وأنتم في تصويت من التصويتات- ترفعون أيديكم كلكم إشارة إلى الإجماع وكناية عن وحدة الصف؟

أما نحن السُّوَقَة فلسنا نقرأها كذلك. بل نرى أنها تعبير عن غياب أي صوت مخالف -حتى لا أقول معارض- يكسر القاعدة بأي استثناء يتيم يمكن أن يعطينا إشارة يقظة أو حياة لمجلسكم الموقر"[47].

---

[44] - نفسه، ص 78.

[45] - نفسه، ص 99.

[46] - نفسه، ص 71.

[47] - الرسالة، ص 39.

- وهو يرتضي الإخلال بمهامه، ذلك أن صرح التنظيم ينهدم "لبنة لبنة أمام أعين مجلس الشورى دون أن يقوم بدوره الأخلاقي والتنظيمي"[48].

- وهذه إمعية وصفته بها "الرسالة" وصاحبُها "أم إن وظيفة هذا المجلس أن يختم على ما يصله من أوراق القيادة على بياض؟"[49].

- وتطلبُ الرسالةُ "تحجيم وتحييد الاستبداد الأصغر الساري في تنظيمنا، المعشش في عقولنا والمحتَضَن في مؤسساتنا، والمتجلية أبسط آثاره في الطاقات المهدرة، والإرادات المعطلة، والأفواه المكمّمة، إلا ما كان من أفواه المدّاحين"[50].

- وتدبير قيادة الجماعة لمسألة الصحبة وُصِف بـ"الانحراف الخطير والبدعة القاتلة والمُثْلَةُ الفظيعة والتغيير الكبير والتزوير الغامض"[51].

<u>الإمام ياسين رحمه الله:</u>

وبعيدا عن محاولة "توريط" الكاتب في الإساءة للإمام عبد السلام ياسين رحمه الله نفسه، فإنه، وهو يسعى إلى إصباغ قيادة الجماعة وتحديدا مجلس الإرشاد بلون الخيانة الأسود، وحاجة ذلك إلى جرّ عدد من الاستدعاءات ومنها علاقة مؤسس الجماعة بمجلس الإرشاد، وقع كاتبنا في أوصاف وأحكام وعبارات، تنتقص من ذكاء الرجل العظيم ونباهته وقدرته ومسؤوليته.

فمثلا عندما تقول الرسالة بأن "مؤسسة الإرشاد ظلّت طيلة أربعين سنة لا تخضع للمراقبة والتقويم حتى من قبل الإمام المرشد نفسه، بحكم أنه كان في أغلب الأوقات إما في المعتقل أو تحت الإقامة الإجبارية، ولهذا لم يكن لها "كبير" يراقبها ويوجهها يوما بيوم"[52]. فهذا طعن في مسؤولية الأستاذ ياسين رحمه الله وقيامه بدوره في متابعة هذه المؤسسة المركزية في سير الجماعة، والقول بأن الإمام كان في أغلب الأوقات مسجونا ومحاصرا لا يكفي لتبرير هذا "القصور"، فحِسْبة صغيرة تقول بأنه ومنذ انطلاق دعوة الرجل، أمضى نصف حياته الدعوية داخل مؤسسات الجماعة يبني ويشيّد ويؤسّس ويواكب ويتابع، كما إن التسليم بغياب المتابعة وبشكل شبه نهائي رغم أسوار السجن والحصار لا يستقيم بالنظر لعظم مشروع الرجل وبالنظر لسمو همته المشتعلة.

---

[48] - نفسه.

[49] - نفسه.

[50] - نفسه، ص 51.

[51] - نفسه، ص 60.

[52] - الرسالة، ص 71.

ومن ذلك أيضا، التلميح شبه الصريح إلى أن أعضاء مجلس الإرشاد أصبحوا في مرحلة ما سورا يحول بين الإمام والجماعة. والتلميح شبه الصريح أيضا إلى أن عددا منهم، وعلى خلاف الأستاذ محمد البشيري رحمه الله، لم يكونوا واضحين في مسألة الصحبة ولم يكونوا مقتنعين بها. وهذا مما أراه "طعنا" ليس فقط في نباهة وفراسة وذكاء وخبرة الرجل بالرجال، بل وغير متّسق بتاتا مع "من له نور الكشف، والموفق المسدد"[53].

على أية حال، وبقدر يقيني في المحبة العظيمة التي يحملها الأستاذ أبو حزم بين جوانحه للإمام عبد السلام ياسين رحمه الله تعالى، بقدر يقيني أنّ شاعرنا ذهب بعيدا وغالى واشتط، وهو يحاول الإتيان، على غير هدى من المنطق السليم والأمانة العلمية ناهيك عن الأخلاقية الإيمانية، بكل ما من شأنه الطعن في رجال أحاط الإمام نفسه ومشروعه بهم.

<u>تعليقات سريعة:</u>

أولا: مما آخذَه الأستاذ أبو حزم على العديد ممّن علّقوا على كتابه الأول (في الحاجة إلى صحبة رجل)، ولم يلتزموا آداب النقاش وسقطوا في ضروب الطعن والتشكيك، "الإرجاف بما لم يشهدوه"[54]، مُنبّها إلى ما يطلبه الشرع من التبيّن "قبل الطعن في العرض وفي الذمة وفي الحرمة"[55]. وهو في هذا محقّ تماما، ولا يمكن لكل منصف إلا أن يرفض التخرصّ والإرجاف بغير دليل فيه وفي غيره.

لكن، ألم يقع الكاتب في "إرجافٍ لم يشهده" حين وزَّع هذا الكيل الكبير من الاتهامات يُمنة ويُسرة؟ وهل سلك ما يطلبه الشرع من "التبيُّن" قبل أن يُصدر هذا الكلام الثقيل، والثقيل جدا؟

هل لدى كاتبنا ما يكفي من الوثائق والدلائل المسندة لهذا السيلِ العَرِم من الاتهام والطعن والتشكيك والتخوين اتجاه هؤلاء الرجال؟ ذلك أنه لم يقدم لنا دلائله مطلقا، بل اكتفى بـ"القول المرسل" وهو يُصدر أحكاما تنْهَدُّ لها القلوب والعقول.

ثانيا: قال كاتبنا إن ما تفضّل به، إنّما هو الحد الأدنى لِلَهْجَةِ المصارحة التي لم يكن لقلمه أن ينزل عنها[56]. وقد اضطررنا إلى الإتيان بالكثير من تلك النصوص من الرسالة، لنرى اللهجة والكلمات والأوصاف والعبارات، والتي لا تشكل إلا الحد الأدنى كما يقول. فما الحد المتوسط والأعلى يا رجل؟!

---

[53] - نفسه، ص 35.

[54] - نفسه، ص 20.

[55] - نفسه، ص 21.

[56] - الرسالة، ص 109.

قال الله تعالى: "**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**"[57]، وقال عزّ من قائل: "**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**"[58]، وقال سبحانه: "**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ**"[59]، وقال وهو أصدق القائلين "**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا**"[60].

ولله ذَرُّ صاحب الظلال رحمه الله وهو يقول: ""**وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**" على وجه الإطلاق وفي كل مجال. فيختاروا أحسن ما يُقَال ليقولوه.. بذلك يتَّقُون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة. فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيئ يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندّي جفافها، وتجمعها على الود الكريم"[61].

ثالثا: وقف شاعرنا طويلا، وهو يؤسس لمساره هذا، عند حديث الإمام عبد السلام ياسين عن النقد وضرورته، وتوطين النفس والمؤسسات عليه، إسداءً وقبولا. لكنه خَلَطَ بين النقد والنقض، ووقع في الطعن تحت مُسمَّى النُّصح. وفعلا إذا كان من شأن الإمعية والذهنيات الرعوية أن تسهم في تَكَلُّسِ الكيانات، فإن التّجريح والتّشكيك، وإن اتُّخِذَ له عنوان النُّصح، وما يثيره من تسميم لأجواء الأخوة والانسجام والمحبة، من شأنه إضعاف الذات الواحدة التي يطلب إليها شرعا أن تكون "كالبنيان المرصوص" و"كالجسد الواحد".

رابعا: ولأن للنقد ميزانا وفهما متزنا، حتى لا يستحيل، إن اختلَّتْ شروطه، معولَ هدم، أحاطه الإمام ياسين بالنواظم الثلاث. فصاحب نظرية المنهاج النبوي وبعد أن ذكر بأنه عند "الانتقال من الناظمة الأخوية إلى الناظمة الشورية لا بد من إلحاح أخير على تغليب المحبة وتسبيقها"[62]، قال "تُطرح للنقاش مشكلة والأفهام متفاوتة والتجارب مختلفة. فتحتد الآراء وتتنابذ الأفكار فتتهدد المحبة، ويطل حب الرئاسة والانتصار للرأي على النفوس. فذلك حين تكون الشدة امتلاك النفس عند الغضب. ثم يعزم القرار ويطلب إليك أن ترجع للرأي الغالب فتمتنع النفس. فذلك حين اقتحام عقبة الهوى"[63].

ولأن الصورة واضحة تماما في ذهنه رحمه الله، وحَرِص على تنزيلها في جماعته، وبعد أن شدّد على ضرورة توطين النفس والمؤسسات على ممارسة النقد وقبوله، أعطى أحجاما متوازنة للصيغة البديعة التي يقترحها "المشورة

---

[57] - سورة البقرة، الآية 83.

[58] - سورة الإسراء، الآية 53.

[59] - سورة الحج، الآية 24.

[60] - سورة الأنعام، الآية 152.

[61] - قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2010م، 2234/4.

[62] - ياسين، عبد السلام، المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا، ص 84.

[63] - نفسه، ص 86.

أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، لكن المشورة النافعة هي التي تنتهي فكريا وعاطفيا بعد التصويت واتخاذ القرار، فينصرف كل إلى مهمته. لا التي تترك أصداء الغل والحزازات، نعوذ بالله"[64].

خامسا: بناءُ الإمام ياسين.. صَرْحٌ ينْهار!

تُصوّر "الرسالة" أن بِناءَ الإمام ياسين رحمه الله أصبح خبرا بعد عين، وأطلالا نتباكى على ماضيها التليد وحاضرها الوئيد، وشيئا جميلا كَانَ فينا وكُنَّا فيه ثم انمحى. باختصار، صرح "العدل والإحسان" انهار، أو كاد ينهار!

- ذلك أن دعوة العدل والإحسان اليوم "تتآكل يدُها يوما بعد يوم كما يتآكل الحديد، ويتحجّر لسانُها تحجُّر الطين تحت الشمس، وتتسرّب روحُها من جسدها تَسَرُّبَ الرمال من بين الأنامل؟"[65].

- فقد "غمر الحرمان كل مفاصل الجماعة وغاب عن قيادتها التوفيق حتى غدت في شلل يدب في أوصالها دبيبا؟"[66].

- فالمجالس "فترت حرارُتها وشَحَّ حضورُها وبعدت شُقَّتُها وتراخت حبالُها" ثم إنه "لا يُرَى من الشباب الْيَفَعَةِ فيها إلا النزر اليسير إلى جانب من فَضُلَ هنالك من الكهول والشيوخ"[67].

- والعمل الإعلامي "لا تكاد تشم من خطه التحريري رائحة المنهاج ونسائم ونفحات صاحب المنهاج"، ناهيك على أنه "يمهد الطريق للتحول، قطرةً قطرةً وجرعةً جرعةً وشبراً شبراً وخطوةً خطوةً، من جماعة تدعو إلى الله إلى حزب سياسي خُبزي"[68].

- وأما العمل الفني فإنه كان وكان ثم "عمل معول الكبر والتخريب فيه عمله التاريخي على مسمع ومرأى منا ومنكم حتى دكّه دكّا فتركه قاعا صفصفا"[69].

---

[64] - نفسه، ص 88.

وفي نفس المعنى قال الإمام في ذات الكتاب "وما حققه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من جلائل الأعمال الجهادية ما كان ليتم لو بقي الأمر عند الألفة والمحبة، بل كان المربي المعصوم صلى الله عليه وسلم معا الصاحب المحبوب والقائد المطاع، وكان بين المحبة والطاعة مجال فسيح للتفاهم الفكري وتبادل الرأي والتشاور". ص 85.

[65] - الرسالة، ص 46.

[66] - نفسه، ص 40.

[67] - المرجع نفسه، والصفحة.

[68] - الرسالة، ص 48.

[69] - المرجع نفسه، والصفحة.

- أما البرامج التعليمية فـ"لا تترجم إلا محدودية من يشرف عليها"[70].

- أما البناء الجديد فقد كانت "سوءاته بادية للأعشى على خطة المشروع حتى قبل أن يفرض على الأرض"[71].

- أما عن العمل النسائي، وبعد استدعاء واقعة "الأخوات المستقيلات"، تقبل الله جهادهن تامّا غير منقوص، جاء الحكم "ها هي ذي روحُ الذراع التنظيمية الذكورية الحديدية المتشنجة تستشري وتتسرّب إلى ما بقي من هذه الضفة من قوارير لا نرقب فيهن خصوصية أو طبيعةً أو ظروفًا"[72].

- أما حديث العدل والإحسان عن المشترك مع الآخر فهو "استجداء حسن السيرة والسلوك"[73].

- وبخصوص تنظيم الجماعة وبنائها الهيكلي فهو "مجرد بناء من إسمنت وحديد وطوابق وضوابط"[74]. ومن ثم فصرح بناء التنظيم ينهدم لبنة لبنة[75].

وهذه لائحة بأهم الأوصاف التي وَصَفت بها الرسالة هذا "التنظيم" وفلسفته ونظامه وحاله: جمارك التنظيم، اللوائح العرفية، جبابنا الرطبة المعتمة، التوقيف والفصل أوّل الدواء، مصير الشكاوى سلّة المهملات، ليظل التنظيم يمارس وظيفته المزمنة في التعامي والتصامم، رقابة تنظيمية طارق بابها مفقود والخارج مولود، قطّاع الطرق، البيروقراطية، محاكمات غيابية، الذراع التنظيمية الذكورية الحديدية المتشنجة، قنوات التنظيم المنخنقة، أرهبتنا عصا التنظيم ونياشينه، الاستبداد الأصغر، معبد وكهنة...

- وواقع الجماعة عموما "شَتَّت شمله بدعةُ "الصحبة الجماعية""[76]. والجماعة "الحبيبة تكاد تموت"[77]. وحالها اليوم كـ"الليل"[78]. بل بلغت "أدنى دركات التقهقر"[79]. وعلى العموم، فجماعتنا اليوم "شاخت روحُها... وتَخَثَّرَتْ الدماء في شراييها... وتَيَبَّسَتْ أطرافها... وتوقفت عن النمو... أما دماغها فقد غيبته في راحته القسرية كل تلك السنين العجاف قلة الأوكسجين في المكاتب الضيقة الرطبة، التي لا منفذ للهواء الخارجي النقي إليها... وأما القلب... وما أدراك ما القلب! ويا حسرتا على القلب!"[80].

---

[70] - نفسه، ص 49.

[71] - المرجع نفسه، والصفحة.

[72] - المرجع نفسه، والصفحة.

[73] - نفسه، ص 75.

[74] - نفسه، ص 111.

[75] - نفسه، ص 39.

[76] - الرسالة، ص 51.

[77] - نفسه، ص 53.

[78] - المرجع نفسه، والصفحة.

[79] - نفسه، ص 113.

[80] - نفسه، ص 112.

- "فكيف تريدنا أن نواجه الاستبداد بنسخة مصغَّرة منه مَزيدة ومُنقَّحة؟"[81]. يتساءل أبو حزم.

هذه "عيّنات" مما جادتْ بهِ الرسالةُ من وصف واقع الجماعة "الكالح"!

قال الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدته الجميلة "فلسفة الحياة":

وترى الشّوك في الورود، وتعمى ** أن ترى فوقها النّدى إكليلا

إذ لا بأس، بل مطلوب، أن نَنْتَبِه ونُنبِّه إلى موضع الشوك، لنتجنب وخزه ولنشذب الأغصان منه، لكن ألّا يُرَى في الورود أيّ ندى، فبله أن يُلحَظ ألوانها ورائحتها ورحيقها، فتلك هي عينُها فلسفة "هلك الناس" في الحياة.

تعليقات سريعة:

أولا: يوم أنهى الأستاذ أبو حزم رسالته هذه، 27 رمضان 1441 هـ، كانت الجماعة بمؤسساتها وأعضائها، متحلقّة روحيا، عبر وسائط افتراضية واقعية أملتها ظروف الحجر الصحي، على مائدة "الرباط الجامع" الذي زامن "الاعتكاف". وقد عشنا في ظله أجواء روحانية عالية، ونقلنا عبره جوهر الجماعة إلى بيوتنا، وشعرنا فيه بهذه اللُّحمة والوحدة والتآلف، رغم التباعد الجسدي والجغرافي، كما أحسسنا أننا نعيش "اعتكافا حقيقيا" ليس فقط ببرنامجه المكثف الذي عايشه الجميع، بل وأيضا بروحانيته وأجوائه الإيمانية العالية التي استشعرناها في قلوبنا وأحوالنا.

وهذه مؤشرات تدل، إلى جانب أخرى أوردناها في هذه المطارحة، على أننا لسنا بإزاء تنظيم يتفكك وفي طور الاندثار والتحلل، مادام محافظا على جوهره الذي نشأ من أجله (حالُك مع الله). بل، ولعلي لا أبالغ، إن قلت بأن الجماعة وهي تُمكِّن لهذه المعاني التربوية في نفوس أعضائها، كانت واحدة من أكثر التنظيمات والتكتلات حركة ونشاطا وفعلا خلال هذا الحجر الذي جاوز شهره الثالث.

ثانيا: اللافت هنا، أنه إذا كان "الرباط الجامع"، والذي تَقَدَّمَه، في ظل حالة الطوارئ دائما، عقْدُ رباطين تربويين وعشرات مجالس النصيحة ومئات المجالس التربوية الافتراضية، يُرسِّخ جوهر مشروع العدل والإحسان التربوي والسلوكي، وهذا ما يناقض "مسلمّة" من مسلمات الرسالة وهي القطع مع الجماعة والمضي إلى الحزب، إذ ما علاقة العمل والخطاب الحزبي بالذكر وختم القرآن والقيام ومواعظ الرقائق ومواد الإحسان ودروس العلم الشرعي...؟! فإن الشق الثاني من الأنشطة، شمل ندوات فكرية ومحاضرات سياسية وفعلا نضاليا ونشاطا تدافعيا واسعا، وكانت عين الجماعة يقظة متبصّرة بمسارات ترسيخ التسلط الممكنة، فنبّهت وذكّرت وحذّرت، غير هيَّابة ولا متخوفة من الكلمة ومسؤوليتها ولا من الموقف السياسي وتبعاته. وبهذا أعادت الجماعة، خلال الفترة التي كُتبت فيها الرسالة، ترسيخ هويتها المتكاملة، غير المنفصلة، "العدل والإحسان".

[81] - نفسه، ص 50.

ثالثا: ليس سليما، ناهيك عن أن يكون صحيحا، أن تصور حركة راسخة في أرض المغرب، وقبل ذلك راسخة في قلوب أبنائها ومحبيها، يعرف الجميع مقدارها وحجمها، وتراعي جل القوى والنظام السياسي جانبها ومكانتها، بهذا الشكل من الضعف والاضمحلال والتبخيس. لا هو في مصلحة الكاتب، ولا معركة التغيير السياسي، ولا مسار الآلاف من الشباب الذين ارتضوا أن تكون المرجعية الإسلامية حيّة في معركة الحياة، ولا مصيرهم وخلاصهم الفردي مع الله. وقد سبق أن نبهنا إلى مزلق المبالغات، خاصة في لحظة الخلافات، وما يجره على صاحبه والنتائج التي يروم تقديمها لقرائه ومنصوحيه.

ونعم، أمام جماعة العدل والإحسان تحديات وعقبات، تتفاوت حدّتها وحجمها، ولا أظن معظمها يخفى على أطرها ومسؤوليها وقيادتها، وهي مما أُمرنا شرعا ومنهاجا باقتحام عقباتها ومغالبتها وعدم الاستسلام لها، والبحث لها عن الحلول الناجعة في ظل ثوابت ومبادئ المشروع، وفي ظل تطوير وتجويد الأساليب والبرامج والآليات. ولا شك ستصيب مؤسسات الجماعة أحايين وتخطئ حينا، وتمضي خطوات وتتعثر أخرى، وتنجز مشاريع وتخفق في بعضها، وهكذا دواليك، المهم هو السعي والعمل والأخذ بالأسباب، والهم كما يقول أهل الله "الله يقتلنا مع الصالحين".

رابعا: من المفاهيم المفتاحية في الفهم "المجموع"؛ هذا المفهوم الذي ساقه الإمام عبد السلام ياسين ليساعدنا على تقييم الأفراد وتقويمهم[82]، حتى لا نقع في مزلق "التنميط" و"قولبة" الجميع على شكل معيّن، أو تغليب جانب واحد من جوانب التربية والتكوين على حساب باقي الأبعاد. وشخصيا أجد أن هذا المفهوم يليق أيضا ويساعد الواحد منا، أيا كان هذا الواحد، في تقييم المؤسسات والمجموعات التي ينتمي إليها (أسرة، وأصدقاء، وحركات...).

وحين أُسقط هذا المفهوم على هذه الجماعة التي أنتمي إليها وإياك، أجد أن المجموع في صالحها وبميزة عالية، وهو ما يجدد الطمأنينة والانتماء والباعث على العمل والعطاء. ولا ضير، بل المطلوب، أن يسائل الواحد منا نفسه بين الفينة والأخرى عن هذا الذي هو فيه؛ ما هو؟ وما أهدافه؟ وإلى أين يسير؟

وحين أفعل، أجد جمعا من الناس رفعوا لهم شعارا استراتيجيا في الحياة: كيف أفوز مع الله (الإحسان)؟ وكيف نحقق للأمة عزتها وتستعيد رسالتها (العدل)؟ وتحته تفاصيل كثيرة وضخمة؛ تنطلق من معاني دقيقة تستقر في القلب كالصفاء والحب والإيثار... ولا تنتهي بأفكار وإشكالات كبيرة كالحديث عن شكل الدولة التي نريد ووحدة الأمة كيف تكون. ووسط هذا، العشرات العشرات من الأفكار والبناءات المنطقية المقنعة، فأن أجد

---

[82] - يقول الأستاذ عبد السلام ياسين في كتاب المنهاج النبوي "كان علماؤنا ممن ألف في طبقات الرجال يكتبون: «فلان فريد في مجموعه»، يقصدون أن ما اجتمع فيه من فضائل العلم والعمل جعله ممتازا لا يماثله أحد في اجتماع تلك الفضائل.
ونحن نعتقد أن ما من عبد إلا وأعطاه الله تبارك وتعالى المنعم خصوصيات في الجسم والعقل وقابليات الإيمان والإحسان، لذلك فلا يمكن أن تنتج التربية جيلا متماثلا أفراده كما تخرج البضائع من المعمل. فنحتفظ بكلمة «مجموع» ومفهوم «مجموع»". ص 43.

ملاحظات هنا وهناك، وأن أسجل نقائص هنا وهناك، فهذا مما لا يزحزح الثقة البتة في "المجموع"، لأن هذا من "طبيعة" الحركات البشرية، بل هذا ما أجده دافعا إلى طرح السؤال على النفس: ماذا قدَّمتَ أنت في هذا البناء العظيم؟ وأيْنَكَ من سيره الفردي وحركته الجماعية؟

خامسا: ليس الإمامُ عبد السلام ياسين، جزاه الله عنا كل خير، على شيء إن كان فعلا كما تُصَوِّر؛ أمضى عمره في بناء جماعة وتشييد صرح، فما إن انتقل إلى جوار ربه، حتى انهار الصّرحُ وخَارَ البناء. وليس على شيء إن لم يترك رجالا خلفاء يحملون مشعل "المنهاج النبوي"، يواصلون المسير ويستكملون السير، صُعُدا بالأفراد إلى مقامات الإحسان وسَيْرا بالأمة نحو مستقبلها الموعود، "إن الله لا يخلف الميعاد"[83].

وفي القصّة المأثورة عن الرجل حين ذكر له أحد الإخوان، على سبيل الفَخَار، بأن فلانا حين كان ساكنا في المنطقة الفلانية كان يقود العمل بشكل جيد وتوسعت الدعوة بفضل جهده وحركيته وفاعليته، وعندما غيّر مسكنه وبدّل المدينة، تراجع العمل وخبا. فعقّب المربي اللبيب "أتمدحه أم تذمه؟!"، إشارة بليغة إلى أن العمل المتين والدعوة الصلبة هي التي ترتبط بالمشروع لا الشخص، وتستمر في رسالتها بعد رحيله لأنه أسّس لشروط استمراريتها. فلنتأمّل.

سادسا: العدل والإحسان.. من الجماعة إلى الحزب!

ماتت الجماعة.. يحيا الحزب!

بهذا العنوان، الذي وَسَمَ الفصل السادس من الرسالة، الدَّال والمعبّر عن الخلاصة التي خلص إليها صاحب الرسالة، انطلق الكاتب في تجميع شظايا الصورة وحلقات الأحداث التي تساعده على تبرير هذا "الحكم القاسي"، الآخرِ هو أيضا.

يرى الأستاذ العربي أن يوم 13 دجنبر 2012، الذي انتقل فيه مؤسس الجماعة الأستاذ عبد السلام ياسين إلى جوار ربه، فصل بين مرحلة جماعة العدل والإحسان باعتبارها جماعة توبة وتربية ودعوة، وبين انتقالها "بالتدريج وبنسبة كبيرة إلى حزب سياسي يحمل مشروعا سياسيا خُبْزِيًّا لا حظّ لها من شعار العدل والإحسان إلا الاسم، والحنين، والذكريات، والحسرات، والزفرات"[84].

[83] - آل عمران، الآية 9.

[84] - الرسالة، ص 61.

وللتدليل على هذا الانتقال، الذي تَسَارَع حتّى بات قاب قوسين أو أدنى بحسب "الرسالة"، أورد أخونا تصريحات متتابعة لكل من الدكتور عمر أمكاسو عضو مجلس الإرشاد والدكتور عمر إحرشان عضو الأمانة العامة والأستاذ فتح الله أرسلان الناطق الرسمي. معتبرا أن حديث القيادة، إلى الصحافة، عن شروط موضوعية لازمة ينبغي توَفُّرها حتى تشارك العدل والإحسان في العملية السياسية الرسمية، إن هو إلا للتَّعْمية و"فذلكة سياسوية" لن تحجب جوهر "الاستعداد الصادق للدخول في اللعبة السياسية دون شروط"[85]، بل إنه لا يعدو أن يكون ""صَلْصَلَةٌ إعلامية" للتسويق الداخلي لتهيء الصف نَفْسِيًّا ليس إلا"[86].

ولِبَيان أن هذه القراءة، أقل ما يقال عنها أنها تتَّسِم بالتَّعَسُّفِ الشَّدِيد، سننظر إلى النصوص التي أوْرَدَها من داخل بِنْيَتِها أولا، ثم نَضَعُها في سياق السُّلُوك السياسي للجماعة ثانيا.

1- في دلالة التصريحات:

إذا ما رجعنا إلى التصريحات الثلاثة، ووقفنا عند كلماتها الصريحة ودلالتها الواضحة في قواميس اللغة، لرأينا أن استنتاج الكاتب الأديب وَسَمَه تَكَلُّف مفرط، لا مُسَوّغ عقلانيَّ يُفسِّره ولا مبرِّرَ منطقيَّ يُجيزه.

في أجوبتهم، عن سؤال شبه ثابت في أسئلة الإعلام للجماعة حول شروطها من أجل قبول تأسيس حزب سياسي والدخول في العملية السياسية الرسمية والمشاركة فيها، اشترط القياديون الثلاثة جملة شروط وضوابط، أهمها: ممارسة العمل السياسي الحقيقي وليس "الديكوري"، اعتراف بنا كما نحن وليس كما يريد النظام، الحدّ الأدنى من الديمقراطية، تعددية سياسية وليس حزبية، حقنا في التنظيم الحزبي، نزاهة الانتخابات، إعطاء الفائز في الانتخابات الصلاحيات ثم الإمكانات وألا يُشَوَّش عليه، تغيير سياسي حقيقي في البلاد، وجود إرادة سياسية حقيقية، دستور يعطي للحكومة صلاحيات حقيقية لتحكم حقيقة، ويعطي صلاحيات حقيقية للبرلمان ليشرع حقيقة، ديمقراطية حقيقية، انتخابات تشرف عليها لجنة مستقلة، في غياب ذلك كن متأكدا أننا لا يمكن أن نقبل المشاركة على الإطلاق.

هل هذا الكلام، الذي أوْرَدْتُه كما جاء على لسان أصحابه، يَتَّسِم بنسبة -ولو ضئيلة- من الالتباس، ومن تم تَفَهُّم إمكانية تأويله في الاتجاه الذي أخذَهُ إليه الكاتب؟ فبله أن يكون "فذلكة سياسوية" يراد بها توهيم الأعضاء؟

وهل هذه المواقف الواضحة "صلصلة إعلامية" تفيد "الاستعداد الصادق للدخول في اللعبة السياسية دون شروط"؟

[85] - نفسه، ص 84.

[86] - المرجع نفسه، والصفحة.

وهل هذه "اللغة العربية الفصيحة" تستقيم معها تلك القراءة المتعسِّفَة والتأويل المتكلِّف؟

2- في السّيَاق الكشَّاف:

يفترضُ المنطقُ السويُّ، عند "التباس" النصوص ودلالاتها ومرامي أصحابها، هذا إذا التبست، أن نضع "بنيتها الداخلية" في سياق "نسقها العام"، ليساعدنا هذا الأخير على استكناه غُمُوضِها ومُضْمَرِها. فالسياقُ كشَّافٌ كما يُقَال.

وفي هذا الصدد، لا يمكن لكل منصف باحث في مسار الجماعة السياسي، إلا أن يقف عند هذا التعسُّف في الحكم والتكلُّف في الاستنتاج، ذلك أن المؤشرات المتكاثرة والمواقف المتواترة لا تفيد البتة أن الجماعة ماضية بعزم وإصرار لتصبح حزبا سياسيا في ظل شروط النظام.

وهذه استدعاءات حيّة لمواقف هذه الجماعة التي أوشكت أن تقبل بشروط النظام! ممزوجة بدندنة في السياسة:

أولا: لعلّ أهمّ مؤسسة يمكنها أن تترجم توجه الجماعة السياسي، خاصة على مستوى الأوراق والوثائق المرجعية، هي المجلس القطري للدائرة السياسية، وهو أعلى مؤسسة استشارية داخل جهاز الجماعة السياسي، خاصة أنه دأب على أن ينشر وثائق سياسية تصدر عن دورته السنوية العادية. وفي دورته الأخيرة 23، المنعقدة يومي 19 و20 أكتوبر الماضي، أصدر ثلاث وثائق رئيسة، جاء في كل واحدة منها ما لا يساعد ادعاء أننا في "المراحل الأخيرة من المخاض"[87].

- نقرأ في التقرير السياسي، الذي يرصد عاما من فعل الجماعة في الشأن العام وسنة من حركة الواقع السياسي، "اكتملت السنة العشرون لحكم الملك محمد السادس. عقدان من الحكم خضع فيهما الحقل السياسي والفاعلون فيه لمحددات قارة ومستحكمة أسست لسلطوية مغلقة. وهي محددات دستورية وقانونية وسياسية تفقد العمل السياسي كل رهان غير خدمة الاستبداد الحاكم، وتضرب مشاريع التنمية الموعودة في مقتل عبر رعاية الفساد والريع وشراء الولاء والمصالح. وتجعل بنية المشهد السياسي وتركيبته مشدودة إلى تراتبية تُعلي من المؤسسة الملكية لتكون "فوق دستورية"، فيما تبقي المؤسسات المنتخبة في موضع الخدمة والتبع، وتلغي الشعب من معادلة السياسة رغم أنه مصدر السلطة المفترض"[88].

---

[87] - الرسالة، ص 91.

[88] - التقرير السياسي الصادر عن المجلس القطري للدائرة السياسية في دورته 23، المنعقد يومي السبت والأحد 21/20 صفر 1441 هـ الموافق ل 20/19 من شهر أكتوبر 2019. ويمكن الرجوع إليه كاملا عبر هذا الرابط:

https://www.aljamaa.net/ar/154441/11-والإحس-العدل-لجماعة-السياسية-الدائرة/

- ونقرأ في البيان الختامي "ومما استأثر باهتمام المجلس، الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحقوقي المتردي بالمغرب، وتمادي السلطات في ترسيخ أسس الدولة البوليسية، وتراكم الجرائم المرتكبة في حق الشعب وخيراته التي تنهب، وسيادته التي تسلب بسبب الفساد والريع والتفقير وغلاء المعيشة والبطالة والمديونية... يتم كل ذلك في إطار لعبة سياسية فاشلة مفضوحة عنوانها ترسيخ السلطوية، وأدواتها التلاعب بحكومة عاجزة ونخب برلمانية متفرجة على تمرير مجموعة من القوانين ضدا على إرادة الشعب"[89].

- ونقرأ في كلمة رئيس الدائرة الدكتور عبد الواحد متوكل "لقد تعرّضت جماعة العدل والإحسان خلال العام الذي مضى لمضايقات كثيرة... بلغ عدد البيوت التي شمعت ظلما وخارج كل المساطر القانونية أربعة عشر بيتا، وتعرض بعضها للسرقة، علما أن قوات الأمن تراقبها ليل نهار، مما يطرح أكثر من علامة استفهام، وتم إعفاء عدد كبير من الأطر من مسؤولياتهم بطرق فجة وبمراسلات معيبة شكلا ومضمونا، وضيق على آخرين في أرزاقهم، وألصقت التهم الباطلة بكل من يشتم منه أن له علاقة بالعدل والإحسان، وروجوا مكرا وخبثا أن جل الاحتجاجات وراءها العدل والإحسان لحسابات سياسية، في حين أن الحقيقة التي يعلمها الجميع أنها بسبب سياسات عمومية لنظام سياسي فاشل"[90].

أليس مستغربا أن تَقِفَ "الرسالة" طويلا عند تغييرات شكلية، لها دواعيها وتقديراتها، وهي من طبيعة سير الحركات وتطوّرها، كتغيير وصف مؤسسات سياسية من "القطري" إلى "الوطني" وتبديل صفة المسؤول الأول من "المرشد العام" إلى "الأمين العام"[91]، وتَتَمَادى في تحميلها أكثر ممّا تحتمل "ماتت الجماعة.. يحيا الحزب!"، في مقابل إهمال خطاب بهذا العمق والصراحة والمسؤولية والوضوح؟!

وهل هذه هي "الصَلْصَلَةُ الإعلامية" التي لا يتعدّى دورها الإعداد النفسي للصف الداخلي، ما دامت صرخة استهلال الحزب أوشك الأعضاء على سماع صوتها؟!

وهل هذا هو الخطاب السياسي لجماعة هي في طور التحوّل إلى "حزب سياسي" كامل الأوصاف "فاتِن مُفَتِّنٍ"[92] بحسب وصف صاحب الرسالة؟!

---

[89] - يمكن مطالعة نص البيان الختامي عبر هذا الرابط:

https://www.aljamaa.net/ar/154376/البيان-الختامي-للدورة-الـ23-للمجلس-القط/

[90] - يمكن الرجوع إلى نص كلمة رئيس الدائرة السياسية عبر هذا الرابط:

https://www.aljamaa.net/ar/154385/كلمة-الدكتور-متوكل-في-مقدس-23-الاستبداد/

[91] - ها نحن نرى أن تحميل تغيير لقب المسؤول الأول للجماعة من "المرشد العام" إلى "الأمين العام" لا يحتمل تلك القراءة المتعسفة على المستوى السياسي، وبقي لنا أن نرجع لننظر إليه -التغيير- في السياق التربوي والقراءة المتعسفة الأخرى التي ترى في ذلك أولى بوادر تغيير جوهر "الصحبة". وهذا ما سنفعل في المحور السابع.

[92] - الرسالة، ص 91.

ثانيا: إلى جانب الوثائق المرجعية، تخرج العدل والإحسان على مدار العام على لسان قيادتها بالعشرات من التصريحات والحوارات، تجدد المواقف الراسخة من الواقع السياسي، وتؤكد رؤيتها وموقفها وتحليلها الثابت ما دامت شروط اللعبة، العليلة المعلولة، معروفة معلومة. وكان بإمكان الأستاذ أبو حزم أن يقف عند كثير منها، مما هو صريح واضح لا لبس فيه، صراحةَ ووضوحَ ما استدعاه من تصريحات. بل كان يكفي صاحب الرسالة، ليدقق موقفه ويبني "حكما عادلا" على موقع الجماعة السياسي، أن ينظر في ما اتخذته من موقف صريح في ظل الحجر الصحي، رغم ما اعترى بدايات الطوارئ من رعبِ "تصنيع الإجماع" لمواجهة "الجائحة الداهمة"، وهو موقف فيه اتزان وذكاء وحكمة "خامة الزرع" من جهة، وفيه القوة والصراحة والتنبيه المسؤول إلى الاختلالات من جهة ثانية.

ولعل كل من تتبّع خطاب معظم رموزها في هذا الفضاء الأزرق؛ محمد حمداوي وهو يُقرّع النظام تقريعا صريحا في تدوينته "مساءلة جوهرية لتدبير السلطة المغربية لتداعيات وباء كورونا"[93]، وخالد العسري وهو يطرح مساءلة دستورية محرجة للتأطير القانوني لحالة الطوارئ الصحية[94]، ومحمد منار وهو يسجل موقفا صريحا من مشروع قانون 20.22 الخاص بتكميم الأفواه في الفضاء الافتراضي[95]، وغيرهم بالمئات. كل من تتبع ذلك سيرى سلوكا سياسيا واضحا من حيث موقفه وموقعه، بعيدا كل البعد عما تكلَّفته الرسالة.

ثالثا: ولأن الأمر قديم وليس جديدا، وأصيل وليس طارئا، ولا يتعلق كما قالت الرسالة، وكما يتوهم البعض، بـ"تحول"، فإن مثل هذا النوع من الخطاب السياسي، الذي يعكس موقفا واضحا وضوح الشمس في رائعة النهار، يرتد إلى أصول راسخة في النظرية السياسية للإمام لا يُغفِلها، ويجتهد وُسْعه في بلورة خطاب بلغة السياسة ومفاهيمها وقوانينها وتفاصيلها دون أن يستسلم لها. ولأنه كذلك، يكفي كل باحث أن يبذل مجهودا طفيفا ليقف على أنه في حياة الإمام كانت الجماعة، خاصة عبر جهازها السياسي، تصدر مثل هذا الخطاب والموقف في تعاطيها مع الشأن العام، وفي تحليلها للحياة السياسية المغربية؛ ولعله يكفينا هنا الإشارة إلى مبادرة الجماعة إلى "اليوم الوطني للحوار" في عدد من الدورات[96]، والذي عرضت فيه العدل والإحسان، تحت بصر

---

[93] - محمد حمداوي، مساءلة جوهرية لتدبير السلطة المغربية لتداعيات وباء كورونا، تدوينة نشرها يوم 22 مارس على حائطه الفيسبوكي، يمكن الرجوع إلها:

https://web.facebook.com/mohamed.hamdaoui.officiel/posts/1479159225577523

[94] - خالد العسري، التأطير القانوني الملتبس لحالة الطوارئ الصحية، تدوينة نشرها يوم 23 مارس على صفحته بالفيسبوك، يمكن الرجوع إلها:
https://web.facebook.com/permalink.php?story_fbid=2853732314095 51&id=100002107065282

[95] - محمد منار، مشروع قانون خطأ في زمن خطأ وبطريقة خطأ، يمكن الاستماع للتصريح عبر حسابه:

https://web.facebook.com/mohamed.baske/posts/10216918085925514

[96] - مثلا، خصصت الدورة الثانية في أواخر مارس 2002، لنقاش موضوع "أي مستقبل سياسي للمغرب؟"، ومما جاء في أرضيته "لا أحد يجادل في ضرورة دستور يصون الحريات الفردية والجماعية، كما لا أحد يشك في أهمية الانتخابات النزيهة، وما تحققه من فرص متساوية للمشاركة في

وبصيرة الإمام ياسين، خطوطا عامة على الفرقاء تقرب وجهات النظر للخروج من أزمة البلد. كما يكفينا هنا أن نشير إلى ما ورد، مثلا، في ركن و"لنا كلمة" في موقع الجماعة الرسمي، والتي تعد وجهة نظر رسمية للموقع ومن ورائه الجماعة، خلال حراك الربيع العربي و20 فبراير، وحديثها الصريح عن مقترح "الدولة المدنية" غير المخاصمة لمرجعية الشعب الإسلامية[97].

بل الغريب، وفق هذا المنطق الغريب الذي نناقشه، أن يصرح الأستاذ عبد السلام ياسين نفسه في تصريح صحفي[98]، بخطاب يشابه هذا وبموقف أخو هذا الذي يرى فيه كاتبنا "تحولا جاريا نحو الحزب". قال الإمام جوابا عن سؤال لجريدة "دي فيلت" الألمانية: "قبل ثلاث سنوات اقترحت علينا السلطات تأسيس حزب سياسي شريطة التخلي عن نقد نظام الحكم في المغرب. طبعا رفضنا هذا الاقتراح. أما عن مشاركتنا في الانتخابات المقبلة فالأمر يتوقف -وإن كنت أشك في ذلك- على مدى حريتها ونزاهتها، لكن ينبغي على الحكومة أن تعلم أننا لسنا أقلية، ولا نخبة دينية، إننا نمثل الأغلبية".

ر ابعا: وقد ذكرني كلام أخينا أبي حزم، بالسؤال المكرور الساذج الذي يجرُّه بعض الصحفيين جرًّا إلى ساحة حوار قادة العدل والإحسان:

- هل ستشاركون في الانتخابات المقبلة؟!

- لا لن نشارك.

- لماذا؟

- لأسباب سياسية ودستورية وتأسيسية تعاقدية. وهي كَذَا وكذا وكذا... وكَيْتَ وكيت وكيت.

تسيير الشأن العام. لكن لابد للدستور من مرجعية تحدد الاختيار المذهبي والفلسفي للمجتمع، هذا ما نقرأه في تجارب الأمم الأخرى (فرنسا، ألمانيا) فمبادئ الحرية والمساواة والإخاء، كانت محل اتفاق الجميع في الثورة الفرنسية قبل وضع الدستور".

يمكن مطالعة الأرضية كاملة على موقع الجماعة الرسمي عبر هذا الرابط:

https://www.aljamaa.net/ar/414/الأرضية-المقترحة-للمائدة-الحواريةأي/

[97] - ينظر "20 مارس والطريق إلى مغرب جديد"، ركن "ولنا كلمة" في موقع الجماعة، ومما جاء في هذا المقال/الموقف "وبما أن مجال تدبير الحكم والسياسة هو مجال اجتهادي خاضع للصواب والخطأ فإننا نرى ألا وجود في الإسلام للدولة الدينية الشمولية بالمعنى التيوقراطي للكلمة. لذا فإننا ندعو إلى دولة مدنية عصرية لا أحد يملك فيها قداسة أو تفويضا إلهيا، ويكون الشعب فيها مصدرا للسلطة انطلاقا مما يؤمن به ويعتقده ويختاره. بكلمة واحدة نحن مع سيادة الشعب".

يمكن مطالعة النص كاملا على موقع الجماعة عبر هذا الرابط:

https://www.aljamaa.net/ar/2011/03/23/20/-مارس-والطريق-إلى-مغرب-جديد

[98] - حوار أجرته مع الإمام ياسين جريدة "دي فيلت" الألمانية، وأعادت جريدة "رسالة الفتوة" نشره في عدد 23 يوليوز 2001.

والجواب رغم وضوحه، لا يَرَى منه البعضُ إلا "شيئا ما" غيرَ مَقُولٍ ولا مرئي، يتخفَّى عن الأسماع ويستتر عن الأنظار. وهذا "الشيء" يتوهَّمُه البعض، ويتصوَّرُه في ذهنه ويتمناه، ثم يبني عليه، ليس تكرار السؤال فحسب، بل وتَوَقُّع الجواب أيضا!

وهذا، إعادة طرح السؤال رغم وضوح الجواب، هو ما تكرّر، مصحوبا بتبشير المبشرين وإنذار المنذرين، سنين عددا بل عقودا مددا، فما وقع، مادام حال السياسة هو نفسه، ذاك الذي توهَّمه الواهمون المتوهمون.

خامسا: وهنا أيضا، وَاحَرَّ قلبي، لجأت الرسالة إلى الغمز واللّمز، معتبرة أن قيادة الجماعة ربما عقدت الصفقة، مُلمِّحة إلى تَلَهُّفها على الانتقال إلى الحزب، علّها تستفيد من مغانمه وريعه!

والسؤال البسيط هنا، الذي لم نجد له جوابا: ما يمنعها، إن كانت تُريد؟

كان يُقال، ها نحن نرى أن "التهمة قديمة"، بأن ما يمنعها هو وجود الإمام؛ فهو الذي كان يقمع تطلعاتها تلك، ورغباتها في أن تستفيد من "حالة الحزب" والدخول في اللعبة وما يُدرُّه عليها من مغانم، وهو من كان يدخلها في قمقمها (كما وصفت الرسالة!).

وها قد أفضى الإمام إلى ربّه. فما يمنعها بعد؟

ألمحتِ الرسالة، ورُبَّ قائل أيضا، أعضاءُ الجماعة.

ثم ترى الرسالة أنهم -القادة- حرَّفُوا فيما هو أخطر (الصحبة)، ومع ذلك سلَّم لهم الأعضاء. فما يمنعهم من "الانحراف" إلى ما هو دون ذلك (الحزب)؟!

وأكثر ما يذهلك في هذا "المنطق"، وأنت تطرح عليه السؤال البسيط أعلاه، حين تسائل غمزه ولمزه بسؤال أبسط منه:

هؤلاء الرجال، الذين غزا الشيب رؤوسهم، ووضعوا أقدامهم في قبورهم، ولن يستقبلوا أياما بقدر التي استدبروها من أعمارهم، ماذا ينتظرون لينتقلوا إلى الحزب؟ ومتى سيستفيدون من المناصب والكراسي والغنائم والمغانم؟ ما الّذي يُؤخِّرهم والموت يطرق أبوابهم؟!

ثم، هذا "التحول المرتقب" ألم يتأخر كثيرا؟ إذ يبدو وكأننا بصدد انعطافة بطيئة متثاقلة، خاصة أن أصحابها يفعلون ذلك على شروط النظام لا شروطهم. ألم تكن سبع سنوات منذ رحيل الإمام كافية لإنهاء "عملية التحول" هذه والانتقال إلى "حالة الحزب"؟!

منطق غريب حقا، وربّ الكعبة غريب.

سادسا: وختاما، يعلمُ كلّ ذكي حصيف أن للعمل السياسي أدواته وقواعده ومجاله ورجاله، ومن تلكم الأدوات التي استقر عندها علم الأولين والآخرين، الحزب السياسي. فهو الوسيلة الأقوى والأصلب لمن أراد أن يمارس العمل السياسي بقواعده، وذلك حين يكون النسق السياسي مؤطرا تأطيرا ديمقراطيا سليما.

ويعلم كل راصد منصف أن الجماعة حين يقول متحدثوها مثل ما أوردَتْه الرسالة من تصريحات، فالمعني بها هو جهاز الدائرة السياسية الذي يتصدّى للشأن العام. وليس المقصود بتأسيس الحزب، حين تتوفر الشروط، انتقال كامل جماعة العدل والإحسان إلى العمل السياسي ومعتركه، وهجرتها وَاحَات التربية والتعليم والدعوة.

ويدرك أيضا كل متمرس، ولو قليلا، أن مثل هذه التصريحات، وإن كانت تعني ما تقول، فإنها أيضا تُمَارس باعتبارها نوعا من الذكاء السياسي والتدافع النضالي، يروم أصحابُها رَمْي الكرة في ملعب النظام، لتنكشف أعطابه الاستبدادية وتشَوُّهَاته التسلطية، حين يمنع جمعا من الناس من العمل السياسي السلمي الحر.

أما نقاش الدعوي والسياسي، الذي أشار الأستاذ أبو حزم إلى أنه لا شك يطفو على السطح يوم تمضي الجماعة في خيار صيغة الحزب، فلا أراه (النقاش) شيئا سلبيا، بل أجده صِحّيا وجيّدا لمسار الجماعة. ولعلّه مطروح اليوم حتى في ظل صيغة الدائرة السياسية؛ إذ يلج المعنيون به في النقاش ويخرجون، ويجتهدون ويُنقِّبون، ويبحثون عن الآليات التنظيمية والقانونية والتربوية المثلى التي تحفظ لكلّ مجال -بمؤسساته ورجاله وآلياته وبرامجه- مكانته من المشروع ودوره فيه.

أما القول بأن المآل، عندما يثار هذا النقاش، لن يكون إلا ما وقع لحركات أخرى أضْعَفَتْ أو أنهت العمل التربوي والدعوي، فتلك "حَصْرِيَّةٌ" في التوقّعات لا أدري مكمن "قَدَرِيَّتَهَا". فإذا كان السبب يرجع فقط لمجرد الاشتراك في المرجعية الكلّية، الإسلامية، ومن تم فمآلات فصائلها هو نفسه، لكانَ اتَّهَمَنا الناسُ بالعنف لأن إسلاميين قبلنا وبعدنا اعتمدوه خيارا، أو لكُنَّا تنظيما دوليا لأنّ حركاتٍ غيرنا اختارت هذا النهج!

سابعا: القضية الأم.. الصحبة و/في الجماعة

إن مطالعة "رسالة" الأستاذ أبو حزم، وقبلها كتاب "في الحاجة إلى صحبة رجل"، تُفضي إلى حصر خلاف أخينا مع ما عليه الجماعة اليوم، في مسألة "الصحبة"، في مستويين؛ مستوى "ماهية" الصحبة كما تعيشها الجماعة بعد رحيل إمامها، ومستوى "آلية" اختيار خَلَف الإمام عبد السلام ياسين.

ولذلك نناقشه في الأمرين معا، ونبدأ بالآلية.

1- "آلية" اختيار خَلَف الإمام

من المهم في البداية الإشارة إلى أن كلمة "آلية" هنا تتجاوز المعنى البسيط والآلي للكلمة الذي يجعلها مجرّدَ إجراء، بل إنها تمتد لتشمل جملة قضايا في الفهم وأخرى في التدبير، أدخلناها جميعا تحت جناح "آلية الاختيار"، كما أدخلها كاتبنا، ليسهل -منهجيا- حصر النقاش والخلوص منه إلى ما يفيدنا.

بناء على ذلك، سنناقش: تعاطي الكاتب مع شريط رابطة الكتبة (باعتباره في رأيه الوعاء الحصري الذي يقدم "آلية الاختيار")، ثم ننظر في مدى التزام الجماعة بهذه الآلية، ثم نقف عند مسألة المصحوب وثنائية الانتخاب والتعيين.

1-1- تعاطي الكاتب مع شريط رابطة الكتبة

يشدّد الأستاذ العربي على أن ما ورد في كلام الإمام عبد السلام ياسين في المجلس التاسع من مجالس رابطة الكتبة، الذي عقد بالدار العامرة بسلا يوم السبت 19 مارس 2005، يعتبر "مرجعا حصريا" للنظر في آلية اختيار خلف الإمام عبد السلام ياسين، وهو اللقاء الذي كان لحظتها "نصا شفويا" فتم تصويره ليصبح "وثيقة مرئية"، والذي أوضح فيه الرجل رحمه الله كيفية انتقال قيادة الجماعة إلى من يأتي بعده.

وأسجل على تعامل الأستاذ العربي مع هذه الوثيقة الهامة ثلاث ملاحظات، تُضيِّق "واسعا" على التعاطي مع مشروع الإمام واجتهاده. أولاهما حضرت وما كان ينبغي، والأخريان غابتا وما كان ينبغي.

- **ازدواجية التعامل:** لم يكن كاتبنا "موحّدا" في منهج تعامله مع الوثائق التي بين يديه، وهو يقرأ فيها ويحلل ويجمع ويحاول الاستنتاج، بل كان صارما متشدّدا حينا وقابلا مستسهلا حينا آخر، مع وثائق من نفس الصنف والدرجة.

وهكذا في الوقت الذي أحاط شريط رابطة الكتبة بسياج من التبجيل في اللغة ومن الرفعة في المكانة، أطر حوار الإمام مع الدكتور محمد منار بمقدمات ولغة وملاحظات تنتقص من قيمة الوثيقة وأهمية ما ورد فيها، مع أنهما معا صادران عن الإمام أولا ومن نفس الدرجة (شريطان مرئيان) ثانيا. ويمكن للقارئ العودة إلى الفصل الخامس (المعاهدة- 2005م) والفصل السادس (حوار- 2009م) في كتاب "في الحاجة إلى صحبة رجل"، للوقوف عند هذه "التفضيلات" المتكاثرة التي حرص من خلالها على الإعلاء من شأن وثيقة على حساب أخرى.

ازدواجية التعامل مع الوثيقتين، على المستوى الشكلي، ستأخذ بُعدا أكبر حين ستشمل أيضا ليس فقط المحتوى عبر آلية "التأويل والتفسير"، بما يرسخ معنى مرادا ويدفع آخر مخالفا، ولكن باستغراب، يقارب الرفض، أن يكون الإمام "بثَّ" رأيا يهم موضوع الصحبة والجماعة وفي الجماعة في شريط مرئي (الحوار مع

منار)، في الوقت الذي قبل فيه أن يعرض الإمام رأيا مهمّا أيضا في مسألة خلافته على رأس الجماعة وآلية ذلك في شريط مرئي آخر (لقاء رابطة الكتبة).

قال الأستاذ العربي "وكأن الرجل الذي كانت الوصية عام 2002م آخر مكتوباته لم يكن يجد على مدى سبع سنوات إلى حدود إجراء الحوار سنة 2009م، الوقتَ أو القدرة أو القلم أو الأوراق أو أي وسيلة توثيقة أخرى لتوثيق وإثبات ذلك "التجديد"؟!"[99]. وبإمكان أي واحد منا أن يُغيّر فقط "سبع سنوات" ب"ثلاث سنوات" و"سنة 2009م" ب"سنة 2005م"، ويُسقط نفس الجملة على "شريط رابطة الكتبة"! ذلك أنه، يُعدّ الحجة الوحيدة لدى أبي حزم لتدبير لحظة هامة، وهامة جدا، تَهمُّ انتقال الصحبة من الإمام إلى خليفته، والكيفية التي ينبغي أن يُجرى بها ذلك.

المهم، وإذا كان من الضروري التأكيد على أن الوثيقتين المرئيتين معا، مُعتمَدَتان، ضمنَ نسقٍ أعمّ، في فهم وتفسير مراد الرجل في مسألة الصحبة وقضاياها، في حياة الرجل وبعد وفاته، فإن غايتنا هنا التنبيه إلى أن "التعامل التفضيلي" و"ازداوجية التعاطي" مع تراث الإمام ومراجعه ووثائقه يفضي إلى نتائج وخلاصات قد تخالف مراد الرجل رحمه الله.

- **الكُلّية:** الإمام المجتهد عبد السلام ياسين رحمه الله صاحب مشروع كبير وضخم، يتَّسم، من بين ما

يتسم به، الاتساق والبناء المنطقي، ومن ثم حاجة الباحث إلى النظر في القضية الواحدة ضمن مجموع القضايا وكلياتها، وإلحاق الفرعي منها بالأصلي وإتباع الجزئي بالكلي، ووضع الفكرة في بِنْيتها، والمقترح في سياقه، واستجلاء الغامض أو المتشابه بما يفسره ويوضحه ويشرحه من داخل البناء والتصور والمشروع.

في ظل ذلك، يمكننا أن نضع مضامين الشريط وما جاء فيه ضمن مجموع و"كلّية" ما أثله صاحب المشروع. وعليه فحديث الإمام، المكتوب والمرئي، عن الاستخارة، وعن الاستشارة، وعن الاستئناس بالغيب، وعن الرؤيا التي تَسُرُّ ولا تَغُرُّ، وعن انتخاب المسؤول الأول في الجماعة... كان مبكرا -وليس جديدا مستحدثا في لقاء رابطة الكتبة- وبالتالي فـ"الفلسفة العامة"، إن صحّ هذا التعبير، التي بنى عليها الإمام تدبير الجماعة، ومنها "منطق اختيار" مسؤوليها ومنهم مسؤولها الأول، كانت مُعدّة سلفا قبل هذا اللقاء وكانت واضحة ومعروفة، وما بيان "الآلية المباشرة" ووضوحها أكثر في هذا الشريط، إلا بعضٌ من بنات تلك "الفلسفة" وتعبير من تعبيرات ذلكم "المنطق".

[99] - أبو حزم، محمد العربي، في الحاجة إلى صحبة رجل، الطبعة الأولى، ص 104.

إن هذا الفهم يُفضي بنا إلى الشمول في الرؤية، ويجنبنا الوقوع في الذهنية التجزيئية التي حذر منها الإمامُ نفسُه، ويجعلنا في سعة عند التعامل مع فكرة وكتاب وشريط ووثيقة، ما دمنا نضعها في بنيتها الكلية، ولا نتجنى عليها بنسق آخر مغاير.

- **الاجتهاد:** لم يدّع الإمام ياسين يوما لنفسه العِصْمة، المخصوصة للأنبياء، بل كان رجلا عظيما ببشريته

وبتواضعه وباجتهاده الكبير الذي قدمه للأمة أفرادا وجماعات، غايته أن يكون لهم عند الله اسم في الملكوت الأعلى، وهدفه أن تكون لهم عزة في هذه الحياة الدنيا. وهو حين أسّس مقترحه على أساس صلب من ثوابت واضحات، على مدارها تُبنى ماهية العدل والإحسان، قال وأشار وكتب وذكر وأعلم وحذّر وأشهدَ الله أن يكون خصيما لمن يتخذ فكره صنما، تقف عند حدوده الفهوم وتتحجّر وتقعد وتكرر ولا تجتهد وتبدع وتفصّل وتطوّر.

فالرجل رحمه الله، وبتواضع الكبار وتعليما لأبنائه، لا يجد مُركَّب نقص في أن يقول وهو يناقش مسألة ما "ليست لديَّ أجوبة جاهزة عن هذه الأسئلة"[100]، ومما اشتهر عنه حد التواتر قوله، لمن يسأله من الأعضاء عن كذا أو يطالب منه أن يقترح عليه كذا، "أنا داك الشي لي عندي كتبتوا وقلتوا، سيروا شوفو انتوما أش بان ليكم" (أو ما يقارب هذا القول). ولعلّ على أتباعه ومحبيه، وحتى مخالفيه، الوقوف مليا والتأمل كثيرا في قوله الجامع المانع هذا، وهو يُوجِّه إلى كيفية التعاطي مع مشروعه واجتهاده "وعلى الناس -في زماني وبعد زماني، في هذه الجماعة وفي غيرها- أن ينتقدوا، وأن يحللوا، وأن يردوا، وأن يأخذوا، وأن يطوروا، وأن يحوروا، فذلك ما أريده. وأرجو الله ألا يقف أحد معي فأنا أحاجه عند الله عز وجل إن اتخذ فكري وثنا وصنما"[101].

فإذا استحضرنا منهج الإمام هذا، وسلّمنا أن الجماعة خالفت الآلية التي بيّنها الإمام في الشريط، وهي لم تفعل، وسنأتي إلى نقاش ذلك في "ثلاثية الاختيار"، أو اجتهدت وزَايَلَتْها جزئيا، وهي بصدد نقاش وإعمال "آلية". وعدّ بعضنا ذلك مخالفة لمسألة مركزية حاسمة، وإخلافا لثابت من الثوابت يختل معه كامل المشروع، فإن حديث هذا البعض لاحقا عن الاجتهاد في ظل مشروع الإمام، فبله "أن يردّ، وأن يأخذ، وأن يطوّر، وأن يحوّر"، لن يعدو أن يكون إطلاقُ كلامٍ في الهواء، للتعمية على حقيقة الجُمُودِ الحَرْفِيِّ التَّامِّ. وهو ما يخالف سُنن الله في الخلق، كما يخالف وصيّة الإمام لتلاميذه.

وحتى أُنهي هذه الجزئية، آلية الاختيار، وبعد ملاحظة أن تعامل الباحث مع "مادة البحث"، على مستوى الوثائق والمصادر، يفترض أن يتسم بـ"وحدة التعامل" حتى تقترب نتائجه من "الحقيقة"، فإنه من الضرورة الاستمساك

---

[100] - ياسين، عبد السلام، الإحسان، ج 1، ص 212.

[101] - الركراكي منير والعلمي عبد الكريم، حوار شامل مع الأستاذ المرشد عبد السلام ياسين رحمه الله، ص 40.

بقاعدة "الكُلّية" التي تساعدنا على وضع الشريط في سياقه وبِنْيته العامة، وبركيزة "الاجتهاد" الذي يتيح لأبناء الإمام الأوفياء لمشروعه الإضافة والتطوير. وهو ما من شأنه أن يجعلهم على هدى من أمرهم، حتى لا يُضيِّق عليهم "الفهمُ التجزيئيُّ" واسعا.

1- 2- ثلاثية الاختيار

لقد كانت وصية الإمام رحمه الله في الشريط واضحة وهي تؤكد على الجمع بين الاستخارة الواسعة والاستشارة الواسعة وتلمس إشارات الغيب. وهذا ما يرى أخونا العربي أن الجماعة خالفته.

وبعد التأكيد على ملاحظاتي المشار إليها أعلاه، لا أرى أن جماعة العدل والإحسان خالفت مرشدها الأستاذ عبد السلام ياسين، فقد فعّلت المعاهدة والتزمت بها، وهي تختار خليفته على رأس الجماعة.

- لما التحق الإمام ياسين بجوار ربه، بعد عمر مديد في التربية والدعوة والجهاد، وبعد يومي الوفاة والجنازة والتأبين المشهودين (13 و14 دجنبر 2012)، التأمت الجماعة أيام 21 و22 و23 دجنبر 2012 في رباطات تربوية على طول امتداد وانغراس مؤسساتها وأبنائها وأقاليمها وشُعَبها وأُسَرها في خارطة وتربة البلد، رباطات توجَّه فيها المؤمنون والمؤمنات إلى باب الملك الوهاب دعاء واستفتاحا واستمطارا، تزامنا مع انعقاد رباطٍ شُورِيٍّ في ذات التاريخ لمجلس الشورى بمقر الجماعة في دارها العامرة بسلا.

وعلى هذا الأساس فقد كانت الاستخارة، التي يخرج بها العبد من حوله وقوته وتدبيره إلى حول الله وتسديده وتأييده، موسّعة وموسّعة جدّا، حقيقة لا مجازا. استخارةُ ودعاء المعنيين مباشرة بالاختيار والانتخاب، مسنودة وممدودة باستخارة ودعاء عموم المؤمنين والمؤمنات.

- في ظلال هذا الرباط الشوري وبركاته، المحفوف بعشرات الرباطات تلتف فيها آلاف مؤلفة من القلوب والأرواح تسأل مولاها عز وجلّ السداد والتوفيق، عَقد مجلس الشورى جلسة اختيار خليفة الإمام ومسؤول جماعة العدل والإحسان، عن طريق الانتخاب كما هو مقرر في قوانين الجماعة، وكما أخبرت بذلك قيادتها منابر الإعلام في ندوة تقديم الأستاذ محمد عبادي أمينا عاما. وإذا ما استحضرنا تركيبة المجلس التي تراعي التنوّع الوظيفي لمؤسسات الجماعة من جهة وتستحضر البعد الجغرافي من جهة ثانية، وإذا ما علمنا أنه، ونظرا لطبيعة هذه الدورة الخاصة، فقد حضر أعضاء آخرون للمجلس في إطار "الشورى الموسّعة"، وإذا ما راعينا وضعا موضوعيا يجعل للجماعة "مقرّا" بمواصفات التضييق والحصار المخزني مما يُلْزِمها بأعداد مهما توسعت لن تقهر "إكراه الحيز المكاني"، وإذا ما اعتبرنا، أخيرا، أن أولئك المُنتدَبين والمُنتدَبات في مجلس الشورى اختيروا

من قبل مؤسساتهم وإخوانهم وأخواتهم ليمثلوهم ويختاروا عنهم... إذا ما استحضرنا كل هذا فلا يمكن إلا أن نعتبر أن "الشورى الموسعة" تمثلتها الجماعة إلى حدّ بعيد، وحضرت في تدبير اللحظة بشكل معتبر.

وحتى إن سايرنا أخانا، أو غيره، في قول أنْ كان في الإمكان أوسع مما كان، فإن الحكمة والمنطق يقتضيان أن نقرأ هذا التدبير الشوري في سياق آلية الاختيار ككل، وفي سياق النتيجة والمآل، وفي سياق ما تحصّل من "اطمئنان" أو "تشكُّك" لدى المتشاورين ولدى عموم أبناء العدل والإحسان من مخرجات هذا المجلس الهام في تاريخ الجماعة. وهذا كله في نظري يجعل الشورى مطمئنَّة البال مرتاحةً وسط أخواتها، من استخارة وإشارة الغيب وسلامة النية والقصد، ومستبشرة بما أفضت إليه من اختيارٍ يُرى أثره ونوره وبركته بعيني القلب والرأس.

- أما قول كاتبنا إنه في رباط الشورى هذا، جرى "إقرار تعطيل الغيب"[102]، و"التغييبَ المذهلَ للغيبِ"[103]، فهو كلام غير دقيق.

بداية، ما جرى؛ أنه تم اقتراح، لعلّ الناطق الرسمي الأستاذ فتح الله أرسلان هو الذي اقترح، تجنّب قصّ الرؤى، تجنبا للتأثير على الاختيارات الحرة للأعضاء المنتخِبين.

وهنا نحتاج إلى جملة بيانات وإيضاحات:

أولا: القول بأن عدم قصّ الرؤى هو منع للغيب وتعطيل له، تغليط يعقبه سوء فهم وتفهيم. ذلك أن تجنب القَصّ، أي الحَكْي، لا يعني منع الرؤى ذاتها من أن يراها الرائي (ومن يَقْدر على حبس هذا المدد النوراني من أن يتنزَّل على الناس؟!)، فكيف بمنع الغيب، هكذا، على الجملة والإطلاق، كما تدّعي الرسالة؟!

ثانيا: إذا قرّرنا أنه يتعذر منع الرؤى، ناهيك عن أن يقوم أحد بذلك، ومن باب أولى تعذر تغييب الغيب، فإن بإمكان، من فَتَحَ المولى الكريم له نافذةً على هذا الجزء من النبوة، أن يستأنس ويسترشد بها، ما دامت هذه الرؤيا تقع في دائرة المقبول شرعا وعقلا، وما دامت أنها وافقت اطمئنانه القلبي وارتياحه العقلي لاختياره.

ثالثا: لا تُخفي الجماعة استبشارها بالرؤى وإحلالها موضعها اللائق بها، وقد اختطت لنفسها موقفا واضحا من الرؤى ورسائل الغيب. كيف لا ولم يبق فينا من النبوة إلا المبشرات؟! فالرؤيا الصالحة، التي يراها الرجل

---

[102] - الرسالة، ص 105.

[103] - في الحاجة إلى صحبة رجل، مرجع سابق، ص 95.

أو تُرى له، هي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، وقصّها كان دأبا دائما للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مع صحبه الكرام. فهي جزء من الغيب المأمور شرعا الإيمان والتصديق به.

ومن الأحاديث التي يحرص أعضاء الجماعة على استظهارها عن ظهر قلب، حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه حين قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: لَمْ يَبْقَ مِنَ النُبُوَّة إلاَّ المُبْشِّراتُ. قالوا: وَمَا المُبْشِّراتُ؟ قَالَ: الُّرؤْيَا الصَّالِحةُ. (رواه البخاري). وفي مسند الإمام أحمد زيادة "يَراها الرَّجلُ، أو تُرى له". ومن فقرات البرنامج التربوي الراسخة في مجالس الأسرة والشعبة، وفي النصيحة والرباطات والاعتكافات، فقرة قصّ الرؤى بعد أداء صلاة الصبح، استنانا بسنة الحبيب المصطفى الثابتة.

رابعا: في مقابل ذلك، تتعامل الجماعة مع الرؤى بما يمليه عليها شرع ربنا الحنيف، وما استقر عليه رأي علماء الأمة. فلا تعتمد الرؤيا مصدرا للتشريع وبناء الأحكام واجتراح الأعمال والحسم في الاختيارات. فالرؤى ورسائل الغيب تسرُّ ولا تغرُّ، نطمئن إليها، ثم نعرضها على الشرع والعقل والتصوّر. يقول الأستاذ ياسين رحمه الله تعالى بعد حديث عمن اختصهم الله بالفراسة "لا أعني أن يعتمد المجاهدون من رجال الدعوة على شيء من الفراسة والرؤيا والمكاشفة اعتمادا يَحُلُّ محل الطرائق الشرعية لاكتشاف الحقائق واتخاذ القرارات. فذلك خروج عن جادة السنة إلى هوامش الخرافية والضلال. وقد كان رسول الله ﷺ، وهو النبي فعلا وكمالا، وكان خلفاؤه الراشدون المتفرّسون الربانيون، ومنهم عمر المحَدَّث بشهادة النص النبوي، يطرحون المسائل للمشاورة والأخذ والرد والمراجعة والرجوع آخر الأمر إلى الله ورسوله، وإلى ظاهر الشرع"[104].

خامسا: رغم أن الإمام، أكرمه المولى الكريم بواسع كرمه، أكد على الرؤيا وتواطؤ المؤمنين عليها في الشريط، فإن الفهم السليم يجعلها جزءا مُكمّلا للاستشارة والاستخارة هذا من جهة، ثم لا يجعلها المعَبّر الوحيد عن الغيب من جهة ثانية. ذلك إن رسائل الغيب التي تؤيد الشهادة واسعة الأبواب؛ فطمأنينة القلب إلى اختيار العقل، والخاطر في داخل المرء يهديه إلى أحسن السبل، والفراسة والارتياح والاستبشار، والإجماع أو ما يقاربه، والانسجام وعدم الخُلف في لحظة حاسمة، وانجماع الأمر لا تشتته، والراحة الشعورية والسلامة الداخلية تُظلِّلُ الجمعَ وهو يمضي إلى اختيار "خَلَف الإمام"، وأن تكون الحصيلة رجلا ربانيا تذكرك بالله رؤيته قبل كلامه، ولا نزكيه على الله، وقيادة منسجمة متحابة متواضعة مخلصة لروح الإمام تواصل اجتهادها في تنزيل مشروعه، كل ذلك وغيره أجده من صميم الإشارة الغيبية ولُبّها ولُبَابِها وحقيقتها.

[104] - ياسين، عبد السلام، الإحسان، ج 2، ص 46.

لسنا إذا، بصدد تغييب الغيب، ولا تعطيل وصية الإمام، بل أجد حرصا كبيرا من قبل الجماعة وقيادتها على ذلك، استخارة واستشارة واستئناسا بإشارات الغيب.

1- 3- وارث الإمام وقائد الجماعة بين الانتخاب والتعيين

من القضايا التي لم أستطع أن أفهم فيها مُرادَ أخي محمد، بل ووجدت تعارضا بيّنا في رأيه فيها، قضية "المصحوب خليفة الإمام" أتكون انتخابا ممن لهم حق الانتخاب في المؤسسة المعنية، أم هي موكولة إلى التوريث والتعيين يرث فيها اللاحقُ السرَّ من السابق دون النظر في "إرادة الأصحاب"؟

فهل وارث الإمام يُعَيَّنُ وِرَاثَةً أم يُنَصَّبُ انْتِخَابًا؟

عندما داهمت الأستاذ ياسين أزمته الروحية، ذهب يبحث عن جواب لأسئلة الوجود والمعنى والتربية لدى الشيخ العباس القادري البودشيشي رحمه الله، وبعد تجربة تربوية وسلوك إحساني وتشَرُّب وتذَوُّق واستمداد، أهَّلَهُ ليقف على الجوهر واللب وهو التزكية و"أن تعبد الله كأنك تراه"، طفق راجعا، حين شبَّ عمرو عن الطوق، حاملا معه هذا الجوهر الإحساني ليأخُذَ موضع القلب من عمل جماعي حركي جهادي، لا تُقْعِده تَكَايا الخلاص الفردي وزوايا الزهادة والدروشة عن همِّ الأمة ومسير الأمة ومصير الأمة. فكانت العدل والإحسان، وانجمعت الصحبة والجماعة.

وهو حين اسْتَجْلَبَ معه هذا الجوهر، هجر وبشكل واضح لا غبار عليه وبعزم قاطع لا تردُّد معه الصوفية ومصطلحاتها وطرائقها والتباساتها وأحوالها، مع تشديده الذي نعرفه جميعا على فضلهم وخيرهم ولبّ ما عندهم. ليؤسّس سلوكا إحسانيا جهاديا على "منهاج النبوة"، يتلمس فيه مواطن الأثر النبوي ليضع على إثره وأثره قدميه وأقدام أصحابه، ويتحسّس مواضع السلوك المحمدي ليرفع إليه همة أتباعه. وقد شاع عن الرجل، أجزل له المولى عظيم الجزاء، كراهته تلقيبه بالشيخ، وجعل كلّ أوراده مسنونة ثابتة عن المصحوب الأعظم صلى الله عليه وسلم، وعُرف أصحابه بالأعضاء وهو بالرجل الرباني المجاهد مُهْملا ثنائية "الشيخ والمريد"، وقال صراحا "لست أدعو إلى التصوف، ولا أحب الإسم والشكل لأني لا أجدهما في كتاب الله وسنة رسوله بعد أن اخترت جوار القرآن والجلوس عند منبر الحبيب المصطفى ﷺ"[105].

ضمن هذه الرؤية، وبعد أن شيّده على أرضية الحب والتربية والسلوك إلى الله، أسّس الإمام ياسين "قواعد" و"قوانين" تنظيمية تشد أركان بنائه وصرحه (جماعة العدل والإحسان)، حتى يضمن سلامته وصلابته الذاتية

[105] - ياسين، عبد السلام، الإحسان، ج1، ص 19.

أولا، وحتى يلج ساحة التدافع والفعل والحركة والجهاد والدعوة وهو مشدود إلى ركن ركين من قاعدة وناظمة الشورى ثانيا. هذه الأخيرة التي يراها شرطا لازما لحياة الأمة والدولة ولرصانة الحركات والتيارات.

في ضوء هذا، كان منطقيا أن يزرع في جماعته آلية الشورى لتختارَ الجماعةُ قائدَها على هدى من الرضا والتعاقد، مادام لم يستصحب معه من تجربته الصوفية منطق التعيين وتوريث السر والوارث المُختار برأي الشيخ (الفرد) لا برأي القوم (الجماعة). ولذلك وجدناه تحدّث مبكرا جدا في كتابه "المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا" عن انتخاب المرشد العام، وطريقة ذلك، ونصاب جلسة الانتخاب، وصلاحيات الأمير، واقترح منحه عزمةً وسلطاتٍ تساعده على الإدارة والتسيير، وحذَّر في المقابل من القائد الجبار، وعرضَ مسطرة العزل... وهو حين كان يتحدث عن هذا، كان يفعل ذلك في جماعة من المؤمنين ويقترحه على جمع من السالكين المجاهدين، وكان يعني قائد الجماعة ورأسها والمصحوب المسلك لأصحابه، ولم يعرض ثنائية منفصلة، واحدة تليق للتنظيم والجماعة تأتي بها الشورى وآلياتها، والثانية تنبثق من جبة الشيخ ورؤيته وتوريثه.

وإمامنا هنا، إنما يعيد رسم المسار على المنوال الأول لمنهاج النبوة؛ حين ترك الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لصحابته اختيار خليفته، رأس الدولة والدعوة معا، سيّدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، بإرادتهم الحرة الكاملة، مسترشدين بالاستخارة والاستشارة وإشارات الرسول الأكرم غير الملزمة وغير المباشرة (تقديمه الصدّيق للصلاة بهم في مرض موته بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم. وغيرها).

وإذا، من حقنا أن نستغرب من استغراب كاتبنا محمد العربي أبو حزم حين استكثر على الجماعة، في شخص مجلس شوراها، أن تنتخب خليفة الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله "إننا لا ندري كيف وصلنا إلى درك يحوز فيه المرء درجة وصفة ووظيفة الدلالة على الله بالانتخاب!"[106]. ولا أدري أين وجه الغرابة، ولا طبيعة "الدرك" الذي وصلنا إليه.

بل إني أجد أن موقفه هذا، في الرسالة، استدعى ما يناقضه، في الكتاب الأول[107]، حين أورد نصّا للأستاذ ياسين رحمه الله تعالى قال فيه "بعد ذلك أفاق الصحابة من الذهول، **و انتخبوا خليفة** رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق، فأدّت الصديقية منذئذ ما كانت تؤدي النبوة من وظيفة الحضور والشهادة بين الناس والهداية والدلالة"[108].

---

[106] - الرسالة، ص 79.

[107] - في الحاجة إلى صحبة رجل، مرجع سابق، ص 44.

[108] - ياسين، عبد السلام، الإحسان، ج 1، ص 196.

وتأكيدا للموقف الواضح للإمام من المسألة، اعتبر اختيار الصحابة لقائدهم علامة على "كمال الرشد"، يقول رحمه الله في كتابه جماعة المسلمين ورابطتها "لكن **كمال الرشد** بعد عهد النبوة أن **تنبثق القيادة من الإرادة الحرة** لأهل الحل والعقد من الجماعة ومن اختيارها، ثم تنقاد الجماعة، والجماعات المتآلفة في رابطة، قلبا وعقلا وقالبا لأولي الأمر منها، والأمة من وراء ذلك"[109].

والأستاذ العربي، وعمومُ المنتقدينَ اعتمادَ الآلية الانتخابية لاختيار خليفة الإمام، لا يقدّمون لنا جوابا شافيا عن سؤال "الآلية" التي يقترحونها، بناء على فهمهم المستقل أو المعتمد على قراءتهم لما أراده الإمام ياسين عليه رحمة الله، بل إننا نجد فراغا مذهلا. فها نحن وسّعنا الاستخارة ووسعنا الاستشارة واتبعنا إشارة الغيب، فماذا هناك بعد؟ كيف سيتحدّد "الخليفة" و"المصحوب"؟

إذا استبعدنا الآلية الانتخابية، التي تعدّ أكثر الآليات تجسيدا للشورى وتعبيرا عن "حقيقتها" وشفافيتها، فكيف سنختار إذا؟

وإذا كان الأمر وصيةً وتعيينًا من الإمام لمن يخلفه، فإن حديثه في شريط رابطة الكتبة عن "الاستشارة الواسعة" لن يكون ذا معنى! إذ حول ماذا سيتَشاوَرُ المتشَاوِرُون مادام "مصحوبهم الجديد" محددا سلفا؟!

2- "ماهية" الصحبة والجماعة بعد رحيل الإمام

2- 1 تمهيد يساعد على التفاهم

إلى جانب رؤية الأستاذ أبي حزم لمسألة آلية الاختيار، والتي ناقشنا فهمه لها ولعدد من القضايا المرتبطة بها، تُعدّ القضية المركزية التي عليها مدار الأمر هي مسألة الصحبة بعد رحيل الإمام، ما هي؟ وما طبيعتها؟ إذ شدّد على أن أمر الصحبة بعد الإمام هي هي نفسها، مع تغير شخص المصحوب، الذي ينبغي أن يكون حيا حياة جسدية بيننا، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وقبل أن أناقش المسألة، مع إحاطة كلامي في الموضوع بكثير من التنسيب والتحفظ والابتعاد عن لغة القطع والحسم التي اعتمدها الكاتب، أوضح أن لي مسارين في التعاطي مع القضية:

[109] - ياسين، عبد السلام، جماعة المسلمين ورابطتها، ص 95.

أولا: تشكيلُ الفهم والموقف الخاص وعرضه، تأسيسا على تنظير الإمام رحمه الله، وبناءً على ما استقر عليه سير الجماعة. (وهذا ما سيكون بعد حين).

ثانيا: الاقتناع الراسخ أن "القول الفاصل في المسألة"، وهو غير محاولة الفهم وعرض الرأي والاستفسار والسؤال، يتعدى مجرد القراءة في النصوص وتتبعها وتحليلها ومحاولة فهم مراد صاحبها، بل يرتبط بثلاثة شروط حاسمة:

- شرط في التجربة: تجربة واقعية حقيقية في رياض الذكر والقيام والليل والسلوك وعروج القلب والروح. إذ القضية تتجاوز شقشقة الكلام، وتدبيج القول، لأن الكلمة فيها لسمو الروح وسلامة القلب ورجاحة العقل، والأهم معية الله "كأنك تراه" والصدق التام مع رسول الله.

- شرط في وحدة الكلمة: بانجماع القلوب الصادقة المُحِبَّة على فهم المسألة وبسط أسرارها، والتقاء فهومها في فهم جامع مانع، حوله تتحلق الجماعة، قرينةُ الصحبة وصاحبتها. ولَكَمْ حذرنا الإمام رحمه الله من "الأنا".

- شرط في صحبة الإمام: بصحبة الإمام ياسين ومعايشته السنين الطوال، بما يتيح لها التشرب منه والفهم عنه، وهو ما يتيح لها أن تجمعَ إلى النصوص، كما هي بين أيدينا جميعا، السماعَ المباشر من صاحبها، وهو سماع بالأذن وبالعين التي ترى صنع الرجل في نفسه وفي جماعته.

فما مؤدى هذه الشروط الحاسمة، في المتصدِّين لحسم المسألة؟ وإلى ما تفضي؟

نترك الجواب إلى آخر هذه المناقشة، ونمضي مع كاتبنا.

2-2 ملاحظات.. ومنهجية

لي على ما قدّمه كاتب الرسالة والكتاب، ملاحظات على العديد من القضايا التي عرضها ارتباطا بمسألة الصحبة في جماعة العدل والإحسان بعد رحيل الإمام، من ذلك:

- تحميلُ تغيير لقب المسؤول الأول من المرشد العام إلى الأمين العام، والذي أقدمت عليه الجماعة عِرْفانا بفضل المصحوب المؤسس، أكثر مما يحتمل، وربط ذلك بالنسق السياسي الحزبي حصرا، مقابل استبعاد

السياق القرآني النبوي، رغم أن "الأمين" مفهوم أصيل في السياق الإسلامي[110]. بل وإسقاط وظيفة الدلالة على الله عن الأستاذ محمد عبادي حفظه الله، فقط لمجرد أن اللّقب قد تغير[111].

- الغمز من قناة "الصحبة في أعضاء مجلس الإرشاد"، وكأنهم ليسوا أهلا لها (وهم في نظر كاتبنا ليسوا كذلك، وإلا وقعوا في "انتحال صفة"[112]!). أما الحصرية فيهم دون غيرهم التي لمز إليها فلم يقل به أحد، والاكتفاء بقول الشاعر الأستاذ منير ركراكي، إن صحّ، ليس كافيا البتة لاستنتاج ذلك[113].

- اعتبار عدم إنفاذ مجلس الإرشاد "معاهدة" الإمام في لقاء الكتبة، بالشكل الذي فهمها كاتبنا، قد يكون ناتجا عن "خوف القيادة من أن يأتي من لا ترضى به ومن لا يسير في الاتجاه الذي تريده "فتجد نفسها في الحالة ذاتها التي "عاشت همومها وغمومها" من قبل مع الأستاذ المرشد"[114]!

- القول بأن حوار الإمام مع الدكتور محمد منار يكاد يكون "الحجة المعتمدة الأساسية لأصحاب ذلك الفهم"، ليس صحيحا (وسنأتي بعد قليل إلى بيان الحجج المعتمدة). ناهيك عن الاستماتة في إضعاف الحوار والبرنامج ككل، وتبخيس المحاوِر عمله ودوره[115].

- تأويل بعض نصوص الإمام التي لا تساير طرح "صحبة الرجل الحي" على أن المقصود بها حصرا إما الصحبة الأفقية، أو المراد بها التقاء رواد العمل الإسلامي مستقبلا وولادة "جماعة المسلمين".

قلتُ لي على هذه الفهوم والاستنتاجات ملاحظات ونقاشات، ولكن سأعرض عن ذلك كله خاصة أن بعض تلك القراءات نزلت مع الأسف إلى مستوى لا يليق. وأتبع في المقابل منهجية أخرى في التعامل مع هذه المسألة

---

[110] - الأمين في اللغة الحافظ الحارس، وهو مفهوم قرآني ونبوي أصيل، ولعله من أسرة: إيمان، مؤمن، أمانة، أمان... قال تعالى على لسان إحدى ابنتي شعيب "يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ" (القصص: 24)، قال ابن عباس رضي الله عنه: "أمين فيما وَلِيَ، أمين على ما استُودع".

وفي السيرة، لما جاء أهل نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتمسون منه قائما عليهم يدبر أمرهم، قال لهم: "لأبعثن إليكم رجلا أمينا حَقَّ أَمِين". قال حذيفة: فاستشرف لها الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجراح. متفق عليه. وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه هو أمين هذه الأمة كما في الحديث "لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" متفق عليه.

هذا فضلا عن أن "الأمين"، شطر اللقب الذي اشتهر به خاتم الرسل والأنبياء وإمام الأولياء والأمناء، فهو صلى الله عليه وسلم "الصادق الأمين".

[111] - قبل فوات الأوان، مرجع سابق، ص 77 و78.

[112] - نفسه، ص 67.

[113] - نفسه، ص 66.

[114] - نفسه، ص 103.

[115] - ينظر الفصل السادس من كتاب "في الحاجة إلى صحبة رجل"، الذي يبدأ عند الصفحة 103.

الحسّاسة (الصحبة)، بأن أعرض فهمي ورأيي في القضية، وللقارئ الكريم أن يقارن ذلك مع طرح الكاتب، وله بعدها أن يعرض الأمرين على تصور ومنهاج الإمام، ومن حقه حينها أن يقف عندما اطمأن إليه قلبه وعقله.

وأستند في هذه المناقشة على قاعدتين صلبتين:

- نصوص راسخة مستقرة واضحة للجميع في طرح الرجل للقضية، صلبها دعوته الصريحة، على مدار عشرات المؤلفات ومئات اللقاءات، لصحبة الرجل الحي السالك المسلّك، وسط الجماعة وفي صحبة الرجال.

- نصوص ثانية لها معنى مغاير لصحبة "رجل حي"، بل تفيد -منفردة ومجتمعة- اقتراح الإمام على الأجيال اللاحقة له، صحبةَ جمعٍ من الرجال الصّالحين الربّانيّين المصلحين المُسَلِّكين، المتعاونين فيما بينهم على مقتضيات العدل والإحسان.

وأبدأ باستعراض عدد من هذه "النصوص المغايرة"، مادامت النصوص الأولى لا خلاف عليها، وأُعقبها بتعليقات قد تساعد على فهمها وإيضاحها، وبعدها لننظر في إمكانية التوفيق بينها وحل إشكال هذا "التعارض المفترض"، قبل أن أنتهي إلى مخرجات أراها هامة.

2- 3 نصوصٌ مُؤَسّسَة

بعيدا عن محاولة استقصاء كل نصوص الأستاذ ياسين في مسألة "صحبة الرجال"، أستعرض هنا فقط ستة نصوص أوردها رحمه الله في مواطن متعدّدة، وأبدأ بالنص الأكثر وضوحا وقوة، فالذي يليه، فالذي يليه:

النص الأول: أفتتح بنص أخير! من آخر ما كتب الإمام أعلى الله مقامه، أي وصيته، وأعرض النصّ على طوله النسبي "وأوصي أن العدل قرين الإحسان في كتاب ربنا وفي اسم جماعتنا، فلا يُلهنا الجهاد المتواصل لإقامة دولة العدل في أمتنا عن الجهاد الحثيث لِبلوغ مراتب الإحسان. الإحسان أن تعبد الله كأنك تراهُ، ولا مدخل لك في هذا يا أخي ولا مدخل لك يا أختي في هذا المضمار إلا بصحبة تفتح أمامكَ وأمامكِ المغالق وتحدو بركبك إلى عالم النور والرقائق.

لذا أوصي بالصحبة والجماعة، بالصحبة في الجماعة.

أوصي بالصحبة والجماعة، بالصحبة في الجماعة.

أوصي بالصحبة والجماعة، بالصحبة في الجماعة.

كان من قبلنَا رحمهم الله ورفع درجاتهم **يتفرد منهم الطالب الراغب السائر تأخذ بيده يدُ فرد نوَّر الله قلبه من العارفين بالله مشايخ التربية**. ولمستقبل دعوتنا نرجو من الله نور السماوات والأرض سبحانه أن يفيض رحمته على **أفراد أوليائه وأن يلهمهم التعاون على البروالتقوى، برّهداية الخلق لصحبةٍ تُؤلف القلوب، لا يضيرها أن كان حُبُّ زيد لعمرو أرجح من حبه خالد**. الرجاء من الملك الوهاب أن تكون الصُّحبة والجماعة متلازمين تلازم العدل والإحسان، نرجو من الله عز وجل الملك الوهاب أن تكون الصحبة والجماعة متلازمين في جماعة العدل والإحسان تلازم العدل والإحسان في كتاب الله عز وجل وفي شعارنا، لا تطغ جذبة سابح في الأنوار على شريعة قول الله عز وجل "واتمروا بينكم بمعروف""[116].

النص الثاني: أقتبسه، على طوله النسبي، من حوار الإمام مع أخي الدكتور محمد منار باسك ضمن سلسلة "حوارات حول المنهاج النبوي"[117]. وأعرض الأسئلة والأجوبة معا بلغتها الشفوية، مذكرا أن السؤال نصف الجواب كما يقال، ولأن الأسئلة فعلا ستساعد على تَبيُّن مراد كلام الأستاذ ياسين:

"سؤال: نسمع حديثك من حين لآخر عن الصحبة في الجماعة والصحبة للجماعة والصحبة مع الجماعة، هل من توضيح؟

جواب: التوضيح في هذه المسألة، **الصحبة والجماعة يمكن أن نمددها أفقيا وعموديا إلى أعلى**. الصحبة **في الجماعة، ذلك لكي لا ينفرد أحدهم ويقول أنا أحب هذا الرجل، أيُّ رجلٍ من الصادقين، ولا أريدُ غيرَه، فهذا لا يصلح للجهاد، لا يصلح لجماعةٍ**، إذا كان يصلح للجماعة فإنه لا يصلح للسلوك الجماعي وللسلوك الجهادي. السلوك الجهادي ينبغي أن يقبل فيه الإنسان، من أوّل خطوة يضعها في الميدان، أنه سائر بعد مراحل، مراحل تربوية الصحبة والجماعة ثم الذكر ثم البذل ثم ثم ثم، لكي ننتهي إلى الجهاد.

سؤال: ... بمعنى تقول الآن إذا ظهر أحدٌ، وقال **أنا أريدُ صحبةَ فلان وليس فلان فهذا لا يصلح للسلوك الجهادي**؟

---

[116] - ياسين، عبد السلام، وصيتي، ص 18 و19.

[117] - ياسين، عبد السلام، برنامج مرئي "حوارات حول المنهاج النبوي"، الحلقة الأولى، وهذا رابطها:

https://www.youtube.com/watch?v=_sbdlmnf7TY

جواب: لا يصلُحُ تماما، لأن في ذلك نقضا لمبدإ الجماعة. إذا كان يحب هذا ولا يحب ذاك، كنت أحب فلانا فقضى ومضى، والآن أنا لا أحب الآخر أحب هذا دون هذا...

سؤال: لكن، **كيف يجمع** هذا بين حرصه على الجماعة والجهاد في جماعة المؤمنين **وحرصه على الصحبة، الصحبة التي تعني أن يكون هناك مصحوب يصحبه؟**

جواب: نعم، أن تصحب فردا هذا مبدئيا وفي أول الخطوات يضعها المرء في المجال لا بد منه لأن المرء مع من أحب، ولا يكون المومن مومنا إلا إذا أحب المرء لا يحبه إلا لله. لكن أن يبقى مع شخص فإذا مات ذلك الشخص، بقي بدعوى الإخلاص للمبدأ والإخلاص للبادئ والإخلاص للبادئين وللجيل الأول، إذا بقي يتعلق بالماضين فهذا ما يسمى بالتبرك. يكون التبرك بالأموات ولا يكون التبرك بالأحياء. الأحياء يساعدونك على أن تتقدم خطوة خطوة في طريقك إلى الله عز وجل، **أما أن تتبرك بالأموات أو ببعض الأحياء دون بعض، فمعنى هذا أنك لا تريد أن تشتمل عليك الجماعة، وأن تدخل أنت في الجماعة، وأن تنخرط أنت في الجماعة، وأن تنخرط في مشروعها. تريد أن تَنْتَجِي ناحية وتؤسس لنفسك شيئا آخر غير جماعة العدل والإحسان.**

سؤال: ... هذه الدعوة لا شكّ ممتدة في الزمن، في الأجيال المتلاحقة، يعني مسألة المصحوب، هذا الرجل وهذه المرأة الذين يجاهدون في جماعة العدل والإحسان والحاضرين في الجماعة، **مسألة المصحوب كيف يحسمونها؟ كيف يحققون هذا الأمر الذي هو أمر أساسي في التربية؟**

جواب: من طبيعة البشر ومن طبيعة الناس أن تميل قلوبهم إلى بعض المؤمنين دون بعض، هذا شيء طبيعي، **لكن أن يكون ميلُك إلى فلان عنو انُه وشرطُه أن تعادي فلانا، إذا كان هذا شقا في الجماعة أنا أحب فلانا ولكن لا أريد أن أسمع من فلان...**

سؤال: هل نفهم من هذا الكلام سيدي أنه في المستقبل إن شاء الله في الأجيال المتلاحقة، بمعنى أن الصحبة ستكون صحبات في الجماعة؟

جواب: هذا لا بأس به، إذا كانت لا تتنافى ولا تتعارض ولا تتقاتل. لا بأس بذلك، هذا طبيعي.

سؤال: يعني ممكن أن تكون صحبة لفلان وصحبة لفلان وصحبة لفلان، لكن الشرط **الضروري والأساسي هو** أن يكون كل ذلك في إطار **الحب في الله عزوجلّ.**

جواب: في إطار جماعة مجاهدة. في إطار جماعة تتقدم بك خطوة خطوة لتكون من المجاهدين، ولأمر ما، ترى في أول خصلة من خصال المنهاج العشر الصحبة والجماعة وينتهي الأمر بالجهاد، هو تهييئ، هي تربية، هي تهيئة للنفوس أولا لتبذل وتحتقر كل ما سوى الله عز وجل وكل ما يقربك إلى الله عز وجل، ثم تسوق في ذلك وتصبر عليه وتسير في دربه دون أن تلتفت يمنة أو يسرة. هذا شرط.

سؤال: أنت تؤكد، وهذا من الأمور الهامة والأساسية، **تؤكد على أن السلوك إلى الله عزوجل يحتاج ضروري مربّي، كيف هذا الأمر في ظل الجماعة؟**

جواب: إذا قبلنا الشرط الأول؛ هو أنه إذا مات فلان فقد ذهب إلى ربه، وبقي سر الجماعة في الجماعة، فإذا كنت أنا نحلة، إذا كنت نحلة، فإنني أطلب الرحيق حيث الرحيق، آخذ من هذه الوردة ومن هذه النوارة، إذا كنت نحلة. أما إذا كنت ذبابة تتقذَّر الصالحين، الذباب لا يقبل الشيء الطيب، إذا كنت ذبابة فإني أستقذر هذا وأعرض عن هذا ولا أحب ذاك. **نكون نحلا يطلب الرحيق حيث الرحيق، والرحيق أين؟ في قلوب المؤمنين جميعا. إذا كانوا هم قد سلكوا الطريق، إذا كانت قلوبهم قد صفت من غبش التعلق بغير الله عز وجل وأصبح لكل واحد منهم مطلب عند الله عزوجل**، هل تريد شيئا؟ أريد وجه الله. هل تتبع ما أوحى الله إلى رسوله، هل تتبع سنة رسوله؟ إذا كان الجواب إيجابيا عن هذين السؤالين، **فالقلب مستعد لكي يعطي، لكي تأخذ منه النحلة رحيقها".**

النص الثالث: جاء في كتاب "جماعة المسلمين ورابطتها" يقول فيه الإمام ياسين "مرحلة تأسيس الجماعة تُبْرِزُ أشخاصا يملكون من خصال الشجاعة في الحق، والدراية بالواجب الشرعي، والغيرة على مصير الأمة، ما يؤهلهم للقيادة تأهيلا أصيلا. فهم آباء الجماعة وأمهاتها، وعن جدارة واستحقاق، ونتيجة لسابقتهم الجهادية تبَوَّأوا الصَّدارة. هذا يُسَمَّى في لسان السياسة بالقيادة التاريخية. **فمن هذه القيادة التاريخية** ما ينفرد فيه شخص ممتاز ربانيٌّ، كالإمام البنا رحمه الله، بالمبادرة الموفَّقة، **ومنها ما يظهر بتآلف رجال** دون ذلك ألمعيَّةً"[118].

النص الرابع: وهو تابع للنص اللاحق إذ جاء بعده مباشرة "مرحلة بلوغ الجماعة رُشْدَها واستقلالَها بذاتها **تُلزِم الجماعة أن تختار القيادة من بين الأقران**. **ذاك أوانُ الشورَى والرجولة**. وفي هذه المرحلة **تظهر ثمارُ التربية**

[118] - ياسين، عبد السلام، جماعة المسلمين ورابطتها، ص 93.

من تمكّن الرجال في أخلاق الصدق، والتعاون، ونَبْذ حب الرئاسة، والتنازل عن الرأي الشخصيّ لتبني رأي الأغلبية"[119].

النص الخامس: يوضح فيه رحمه الله "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. والخلافة الثانية على منهاج النبوة لن تكون كذلك إلا إن قادها الربانيون أولياء الله. وفي انتظار أن يفتح الله بالفهم على العاملين نتضرع إليه سبحانه أن ينزل رحمته من خلوات التبتل إلى ميادين الجهاد. **في انتظار** أن يكون لقرانِ الصحبة والجماعة معنى موصولٌ موحَّدٌ من حياة العاملين **نناديِ أولياء الله العارفين بالله أن يتوجهوا بجند الله من صادقي المريدين وعامة المسترشدين نحو توحيد الجماعات**، فتوحيد الجهد، فتوحيد الأمة في أقطارها ومذاهبها ومدارسها ومشاربها، حتى يكون المشربُ محمديا قرآنيا سُنيا محرَّرا من كل عالقات عصور الانزواء والخمول والانكماش"[120].

النص السادس: أورده الإمام عبد السلام في كتاب الإحسان، أعرضه على طوله: "التبرك سجّادة ومجلس كان يتصدره الشيخ المؤسس، فلما توفاه الله جلس مجلسه على سجادته «وارث» من أبنائه الدينيين أو الطينيين، واستمر في تقليد الأب الروحي للجماعة، وحافظ على التقاليد، واجتهد داخل المذهب التربوي، واتخذ لنفسه ولمن معه سقفا بشريا بينه وبين الله ورسوله، وحرص ألا يُزاد حرف على «وظيفة» الشيخ الراحل وأذكاره. وهكذا تكونت مدارس وطرق، في طيها العارفون بالله أحيانا، وفي طيها المريدون، وفي طيها أصحاب الأحوال والكرامات، وفي طيها كل شيء إلا التجديد الذي مات مع الشيخ رحمه الله.

إن الله عز وجل وحده يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها كما جاء في الصحيح. يبعثه حيث شاء، ولكل فئة من فئات حزب الله أن تزعُم أنها الوارثة لمجدِّدها، تُغمض عينها قرونا عما يُحدثه الله عز وجل الباعثُ الوارثُ خارجَ أسوارها ليبقى لها تماسُكُها ووحدتُها. الله سبحانه وحده قادر على أن يعيد ما تفرق من سنة المصطفى ﷺ لتتجمع الأمة كلها خلف قيادة، **في شخص** أو **أشخاص**، في زمن أو أزمان، جامعةٍ للوراثة المحمدية الروحية والجهادية، لأمَّةٍ لِشَعَثِ ما تَفَرق، مُحْيِيَةٍ لقلوب ماتت، باعثةٍ لهمم هَمَدت وخَمدت، منوِّرة لعقول أخذها الجُهد لتصور «البدائل الإسلامية»، وتحليل الواقع، ووضع الخطط، وإحكام التنظيم، ومواجهة العدو الداخلي والخارجي، عن ذكر الله وعن الصلاة.

نسأله عزت قدرته أن يُلهم من بَعْدَنَا من أحبابه العارفين به وسيلة الجمع، وأن يعطيهم القدرة على سلوك الطريق إليه بهذه الأجيال على منهاج النبوة دعوةً ودولةً.

---

[119] - المرجع نفسه، ص 94.

[120]- ياسين، عبد السلام، الإحسان، ج 1، ص 251.

ولا معنى للتجديد ولا مكان له، ولو برز بين المسلمين زعماء عظامٌ، ما لم يتجدد في الأمة الإيمان بصحبة المجددين. وكذلك كان حال الأستاذ البنا رحمه الله"[121].

2- 4 تعليقاتٌ مُساعِدة

أولا: رغم أني لست بصدد "حصر" كلام ورأي وقول الإمام في المسألة، فهذي ستة نصوص بين أيدينا، أعتقد أن لمعظمها (منفردة) دلالة راجحة حول مقصود الإمام من "طبيعة" الصحبة والجماعة التي يرجوها لأبناء جماعته من بعده، ولغيرهم، وهم يسيرون نحو مستقبل أمتهم في الدنيا توازيا مع مسيرهم هم إلى لقاء ربهم، وهي صحبة رجال مخلَصين مخلِصين ربانيين سَالِكين مُسَلِّكين. وهو المعنى الذي يتعزّز ويترسّخ إذا ما نظرنا في دلالات النصوص (مجتمعة).

ثانيا: أغلب هذه النصوص مكتوبة وليست فقط مرئية أو شفوية، أي أن الإمام أسّسها وأنشأها على روية ونظر وتأمل في مستقبل الصحبة والجماعة ووحدة العدل والإحسان، وهو الشيء الذي يتكرّس إذا ما نظرنا إلى تنوّع المصادر أولا وتفاوت تاريخ كتابتها ثانيا.

ثالثا: تفيد هذه المسألة أن معنى "الصحبة والجماعة"، بما هي صحبة لرجال تربية في جماعة جهاد، ومعنى "الصحبة في الجماعة"، بما هي صحبة أفقية بين عموم المؤمنين وصحبة عمودية للربانيين المسلكين داخل الجماعة، ليس أمرا جديدا أو طارئا أو ناتجا عن حوار عارض كما يتصور البعض، بل هي قديمة وأصيلة ومبثوثة في بعض مكتوبات الإمام.

رابعا: النظر في المفردات المستعملة والكلمات المتوسّل بها إلى المعاني، مع استحضار خبرة الرجل السامقة في اللغة العربية ودلالات ألفاظها، تدفع كل تأويل متعسف يلصق مرادها الواضح بالصحبة الأفقية العامة بين المؤمنين، بل هي صريحة في حديثها عن صحبة السلوك والتسليك.

خامسا: إذا كان معنى بعض هذه النصوص (النصّان الخامس والسادس) ينسحب على تعاون قيادات الحركات الإسلامية في المستقبل وعموم طلائع "جماعة المسلمين"، فإن معظمها (الأربعة الأولى) تقدم لنا معنى جليّا في ارتباطها بالجماعة التي أسّسها الإمام وشيّدها ونظر في سيرها في حياته وبعد مماته. ولا أجد ما يمنع ليس فقط من الاستئناس بالنصين الأخيرين بدورهما، بل وإسقاط معناهما ومقتضياتهما على الجماعة الواحدة، خاصة أن النصوص الأخرى، وهي الغالبة، تقدم "معنى مستقلا" واضحا لمسألة صحبة الرجال داخل الكيان الواحد.

[121] - نفسه، ص 206 و207.

سادسا: الكلمات والجمل التي رصّعناها بخط عريض وبسطر تحتها، مفتاحية لفهم مقصوده رحمه الله من قبيل: أن يفيض رحمته على أفراد أوليائه وأن يلهمهم التعاون على البر والتقوى، برّ هداية الخلق لصحبةٍ تُؤلف القلوب، لا يضيرها أن كان حُبُّ زيد لعمرو أرجح من حبه خالد/ نسأله عزت قدرته أن يُلهم من بَعْدَنَا من أحبابه العارفين به وسيلة الجمع، وأن يعطيهم القدرة على سلوك الطريق إليه بهذه الأجيال على منهاج النبوة دعوةً ودولةً/ أن يفيض رحمته أفراد أوليائه وأن يلهمهم التعاون على البر والتقوى/ لا بأس به، إذا كانت لا تتنافى ولا تتعارض ولا تتقاتل. لا بأس بذلك، هذا طبيعي/ فمن هذه القيادة التاريخية ما ينفرد فيه شخص ممتاز ربانيٌّ، كالإمام البنا رحمه الله، بالمبادرة الموفَّقة، ومنها ما يظهر بتآلف رجال/ مرحلة بلوغ الجماعة رُشْدَها واستقلالَها بذاتها تُلزِم الجماعة أن تختار القيادة من بين الأقران. ذاك أوانُ الشورَى والرجولة/...

سابعا: السياقات المحيطة بتلكم الجمل المفتاحية، والتي أوردناها كي تساعد أكثر على الإيضاح، تقول بلسان صريح أن الإمام لا يبتغي تكرار التجربة الصوفية، ويرى أن الجوهر الذي حافظت عليه، وهو التزكية، على الجماعة أن تستصحبه معها وهي تقفز إلى النموذج الأكمل لسلوك الصحابة، تعاونا على البر والتقوى وصحبة للكمَّل من السابقين والمجاهدين.

ثامنا: في الوثيقة المرئية التي اعتمدنا هنا، وهي الحلقة الأولى من سلسلة "حوارات حول المنهاج النبوي"، موقف صريح ولغة واضحة ودلالة لا غبار عليها، تتحدث بلسان عربي مبين:

"أما أن تتبرك بالأموات أو ببعض الأحياء دون بعض، فمعنى هذا أنك لا تريد أن تشتمل عليك الجماعة، وأن تدخل أنت في الجماعة".

وعن سؤال أن الصحبة ستكون صحبات في الجماعة؟ كان الجواب: **"هذا لا بأس به، إذا كانت لا تتنافى ولا تتعارض ولا تتقاتل. لا بأس بذلك، هذا طبيعي".**

وليزيد المحاوِر التأكيد والتثبت: **"يعني ممكن أن تكون صحبة لفلان وصحبة لفلان وصحبة لفلان**، لكن الشرط **الضروري والأساسي هو** أن يكون كل ذلك في إطار **الحب في الله عزوجلّ".**

وليزيد الإمام التوضيح والإيضاح: **"في إطار جماعة مجاهدة. في إطار جماعة تتقدم بك خطوة خطوة لتكون من المجاهدين".**

ولأننا لسنا هنا بصدد مناكفات لا يعنيها إلا الانتصار لـ"الموقف الأول"، والدفاع عنه مهما بدا من حجج لاحقة على "اتخاذ الموقف"، أدعو إلى إعادة مشاهدة الشريط، والتبصُّر بمضامينه، خاصة من الدقيقة 8 و21 ثانية إلى الدقيقة 19 و21 ثانية. إذ سنجد أنفسنا بإزاء محور خاص حول معنى "الصحبة والجماعة" و"الصحبة في الجماعة" و"المصحوب" و"المصحوبين" بعد رحيل الإمام. وسنقف عند حرص شديد على بيان الأمر وتوضيحه لأجيال العدل والإحسان.

تاسعا: أن يُضمِّن الإمام رحمة الله عليه وصيته التي صاغها بماء اليقين وروح الإحسان، ذلك الكلام الصريح وتلك المعاني الواضحة "ولمستقبل دعوتنا [على خلاف ماضي من كان قبلنا، حين كان "**يتفرد منهم الطالب الراغب السائر تأخذ بيده يدُ فرد نوَّر الله قلبه من العارفين بالله مشايخ التربية**"] نرجو من الله نور السماوات والأرض سبحانه أن يفيض رحمته على **أفراد أوليائه وأن يلهمهم التعاون على البر والتقوى، برِّ هداية الخلق لصحبةٍ تُؤلف القلوب، لا يضيرها أن كان حُبُّ زيد لعمرو أرجح من حبه خالد**". أن يفعل الإمام ذلك في وصيته، وهي آخر ما كتب، وهي آخر وأهم ما يترك الصلحاء والأولياء والعلماء، وعموم المؤمنين، فهذا، في نظري، أساس متين في تحديد "هوية" المنهاج التربوي السلوكي الذي اقترحه على جماعته من بعده، وعلى "طبيعة" الصحبة التي أرادها للعدل والإحسان.

2- 5 دفعا لـ"تعارض مفترض"

وهنا لن "أعيد اختراع العجلة" كما يقال، وإنما سأذكّر بما أظن أنه مستقر في روع أغلب أبناء الجماعة، والمؤسَّس على جوهر النصوص التي أشرنا إليها أعلاه، والمشدود إلى ركن صلب هو "مشروع العدل والإحسان".

وأَذْكر، أنه بُعَيْد انتقال الإمام المؤسس رحمه الله إلى جوار ربه، عقدت جماعتنا في مدينة الدار البيضاء لقاء ضَمَّ جمعا من المسؤولين والمسؤولات، لتبيان حالنا ووضعنا ومسارنا ومسيرنا، وتم عرض شريط حوار الإمام المرشد مع الدكتور منار، وتولى نائب الأمين العام الأستاذ فتح الله أرسلان البسط والشرح والإيضاح[122].

ومما أذكره جيّدا أن الناطق الرسمي بيّن لنا الجهد الجبار الذي قام به الإمام ياسين رحمه الله تعالى حين رشحته الأقدار الإلهية لأن يقوم بدور كبير في تجديد فهم الدين، وفي تجميع العدل والإحسان، وفي استرداد الصحبة إلى قلب الجماعة؛ وذلك حين ذهب هو بنفسه لخوض التجربة الصوفية، فتشرّب وتزوّد وترقّى ووقف على حقيقة الجوهر، ثم قفل راجعا غانما حاملا معه الأصل التربوي العميق (الإحسان) ليخرجه من خويصات

[122] - عُقد اللقاء في فبراير 2013، أي بعد شهرين تقريبا على رحيل الإمام ياسين. وتم عَقد نظراء وأمثال له في باقي المدن.

الخلاص الفردي، ويطرحه في ساحة العاملين للإسلام وفي معركة الأمة. تاركا هناك ما كان هناك من ألقاب وأسماء وأوصاف وأحوال وطرق ومسالك، رأى أنها لا ترقى إلى النموذج المحمدي الكامل.

ولأن الفصام النكد بين الخلاص الفردي والخلاص الجماعي، الدعوة والدولة، الحقيقة والشريعة، كان راسخا في أرض العقول والقلوب وفي ميدان الأمة المفتونة، وكان متجذرا بين "عقل" الفقه والحديث والفهم الشرعي والعمل الحركي وبين "قلب" التصوف وجوهره ولبه، تطلَّب الأمر من الرجل الرباني المجاهد جُهدا كبيرا، من خلال شخصه الكريم وتجربته، ومن خلال "تكثيف" التنظير والتأصيل والتأسيس، حتى يقوم بهذه "المصالحة التاريخية"، على الأقل في جماعته التي أسّسها وشيّدها واقتنع الآلاف من الرجال بها وبمشروع صاحبها.

وهنا، حين وقع الوئام والالتئام، وبالتزامن معه، وباتت الصحبة في قلب الجماعة، ولم يعد ثمّة لَبْس في معناها وجدواها وغايتها، حرص الإمام رحمه الله، على تكريس معنى ثان مهم، يزايل به، جوهرا وليس شكلا فقط، التجربة الصوفية، وهو ربط الصحبة بجمع من الرجال، بمصحوبين مسلكين متعاونين فيما بينهم على تطلعات ومقتضيات "العدل والإحسان". رجالٌ تُقدّمهم صحبتهم للرجل، وتقدّمهم سابقتهم، ويقدّمهم غناؤهم، ويقدّمهم حظهم من الله. ليس شرطا فيهم "رتبة" في التنظيم بل الشرطُ الصلاحُ الذي يراه القلب والاستقامةُ التي هي أعظم كرامة والنورُ الذي تَتحَسَّسه الأرواح فتهتدي به.

وقد كان حادي الإمام في هذا، قياسا من أجل الترقي والاهتداء وليس مطابقة نِدِّية حاشاه، انجماع الصحابة بعد التحاق رسول الله الكريم بالرفيق الأعلى، فالتف الصحابة رضي الله عنهم على خليفة للمسلمين هو الصدّيق، والتفوا حول كبار السابقين من المهاجرين والأنصار، منهم يستمدون ويتعلمون ويتنورون ويسلكون، والتفوا على "المشروع" وهو استكمال رسالة الإسلام؛ إخراجا للناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، مُظَلَّلِين بروحه الشريفة صلى الله عليه وسلم وبالسير على منهاجه النبوي الخالد.

ولأن الأمر لا يقف عند شيخ ومريد وكفى من جهة، بل هو صحبة وجماعة وسلوك وجهاد، وهو ترقٍّ وعروج للأرواح وكدّ وسعي للأجساد، ذلك أن مشروع العدل والإحسان يرشّح نفسه لأن يكون له نصيب في تجديد دين الأمة، مع ما لهذه المهمة من التزامات كالجبال في التنظير وفي المشاريع وفي البرامج وفي العمل الميداني. ولأن الأمر حرص شديد على القطع مع كل الالتباسات التي يمكن أن تحيط باستجلاب طرائق التصوف على مستوى الأشكال -مادام الجوهر مُتَحَصَّل عليه- بما فيها مسألة توريث سرّ الصحبة من شيخ لشيخ من جهة ثانية. ولأن

الأمر اقتداء بالنموذج الكامل الذي خطّه الصحب الكرام وتشرّبوه من المعين الطاهر الذي يترجم عن ربه سلام الله عليه من جهة ثالثة، كانت هذه "النقلة الاستراتيجية" مصاحبة لتلكم "المصالحة التاريخية".

ومما يعزز هذا الفهم، هذه الحقيقة الراسخة: لقد عشنا جميعا في رحاب صحبة الإمام، ولكن لم نصحب المرشد صحبة المريدين لمشايخ التصوف؛ لم نلزمه، ولم نُكلَّف خدمته، ولم نحمل نعله، ولم نهيئ له وضوءه، ولم نحضر إلى مسكنه نتردّد عليه كل يوم، بل لم يره أغلبنا الشهور والأعوام، ولعله منا من لم يره أصلا. ومع هذا كنا نصحب أنفاسه وروحه، ونصحب توجيهاته وإرشاداته، ونصحب مكتوباته ومرئياته، ونصحب مشروعه الذي اقترحه على الأمة، ونصحب رجالا استأمنهم علينا وعلى جماعته وجعلهم خلفاء له في تربية الشباب والنساء والرجال. ومما ترسّخ لدينا كلما زاره أحدنا، أنّ صُحبته موجودة في النصيحة، وفي محبة الإخوان، وفي تعظيم المؤمنين، وفي عمل الأسرة والشعبة والدائرة السياسية، وفي أن نكون مع الجماعة (ما زلتم بخير ما دمتم تقولون نحن) ...

بناء على ما تقدّم، ما أفهمه شخصيا، وما أرى أن الجماعة عليه اليوم في مسألة الصحبة و/في الجماعة:

- أننا في صحبة "عمودية" لرجال ربّانيين، يدلُّونا على الله ويرشدونا إلى الترقي في سلم العبودية إسلاما فإيمانا فإحسانا. ومواقع هؤلاء الرجال في القلوب قبل أن تكون في الرتب التنظيمية التي ليست شرطا فيهم.

وهي صحبة، في جماعة/تنظيم العدل والإحسان، وليس خارجها. مع اليقين التام ألا تحجير على أحد من خلق الله في التماس السبل والمسالك إلى الله "وما كان عطاء ربك محظورا".

- أننا في صحبة "أفقية" لمؤمنين ومؤمنات مخلصين، ليسوا ملائكة مقربين ولا إخوانا للشياطين. صادقون في طلبهم وسعيهم وعملهم، يتعاونون على الخير والبر والتقوى، ويسلكون المسارين المتكاملين: خلاصهم الفردي وخلاص أمتهم الجماعي.

وهي صحبة، في جماعة/تنظيم العدل والإحسان؛ تؤطرها غايات الإحسان، وأهداف العدل، ومتطلبات الفعل الجهادي، ونواظم العمل الجماعي، وأسس التعاون مع جميع الصادقين لخير الأمة والإنسانية.

2- 6 مَخَارج ومُخْرجات

الآن، وبعد هذه الجولة، هذه مخارج أجد فيها "طمأنينة القلب"، ومخرجات أقترحها على الجماعة التي أشرُف بالانتساب إليها.

أولا: لعل الجماعة، في شخص قيادتها، قامت بمجهود معتبر في بدايات رحيل الإمام من أجل الشرح والتوضيح والتفهيم، وأرى أنَّ الأمر يحتاجُ جرعةً جديدة من الإيضاح الذي يُضفي على بيان وأصالة ما ذهبت إليه الجماعة، المزيد من الوضاءة والنصاعة التي لا التباس بعدها. خاصة أننا بصدد تعاقب الأجيال، كما أن الذكرى تنفع المؤمنين وتدفع الالتباسات. ولعلنا نشهد ذلك قريبا "وعند الصباح يَحمدُ القومُ السُرَى".

ثانيا: ولعله من الأشياء التي لم تُشعر أحدا بأن ثمة "فراغا" نحتاج لملئه بالأجوبة، هو عَظَمة الرجل الذي رحل عن الجماعة، وقد كان ملء القلوب وروح الجماعة وقائد المؤسسات. لم يغب رحمه الله، وإن مات كما يموت سائر الخلق، بل ظل حاضرا في داخلنا وفي حديثنا وفي برامجنا وفي جماعتنا وفي دعائنا وفي رباطاتنا وفي لقاءاتنا. ولم نشعر أننا فقدناه، وإن ترجل الفارس الصالح عن جواده، للزخم الرباني الذي تركه وللكثافة العلمية والعملية التي خلّفها ولطبيعة المشروع الحي الذي طوق الأعناق به.

ولعله من جميل الوفاء للمصحوب الذي أسس هذا الذي نحن فيه، أن القيادة حافظت على مكانته في القلوب والبرامج والخطاب، ولم تستعجل، وما كان لها، الدفع بـ"الصورة الجديدة" إلى صدر الجماعة، صحبة الرجال الأحياء، مع ما يستتبع ذلك، لزوما، من تقليص حضور "الصورة القديمة". ولعلها عمدت، وعيا وسدادا، إلى أن يكون الانتقال عفويا تدريجيا سلسا، حتى لا نشعر بالقطيعة أو نعيش منعطفاتها الصعبة، خاصة أن الإمام، كما أسلفنا، كنا نصحبه بشكل غير مباشر، عبر "وسائل" هي نفسها المستمرة اليوم، مع احتياط الجماعة التام من صحبة التبرك مادامت تعيش صحبة السلوك.

ولعله من قدر هذه الأجيال التي عايشت وعاصرت "حياة" الإمام، واستقت من روحه وعلمه وجهاده، أن تكون جسر عبور آمن، بين مصحوب مجدد ومصحوبين مجاهدين.

ثالثا: وهنا، في نهاية هذه المناقشة، نأتي إلى جواب سؤال تركناه مُعلّقا في بدايتها، حين رأينا أن من لهم القدرة والأهلية على "القول الحاسم" في المسألة، وهو غير النقاش العام وإبداء الرأي ومحاولة الفهم المتاح للجميع كما أسلفنا، يُفترض أن تتوفر فيهم ثلاثة شروط؛ واحد في التجربة، وثان في الوحدة، وثالث في الصحبة، واستفسرنا عن مؤدّاها وما تفضي إليه.

فهذا رأيي وقناعتي:

- في مسألة بهذه الحساسية والمقدار من الخطورة والأهمية، وفي قضية لطالما تخاصم فيها، وعلى مدار تاريخ الأمة، العقلُ والقلبُ، فتارة يشتطّ هذا وتارة يشطح ذاك، لا أميل شخصيا، حتى وإن وقع اللبس والغبش، إلى البناء على "الرأي المنفرد"، فمن استغنى برأيه ضل. وطبعا للواحد أن يسلك النهج الآخر "أن تكون أمة وحدك"، غير أنه مسلك وعر لا يوصل إلى برّ الأمان دائما، خاصة وأننا بصدد حقلٍ أدعى لأن يتحوّط فيه المرء لنفسه ويتخوف على مَسِيره ومَصِيره.

- لسنا بصدد موضوع في الفكر تحسمه فقط الحجة والمقارعة والإفحام، بل إننا في جوهر الدين والسلوك والعروج إلى المولى الكريم، وفي قلب الرُّوح وكَدْحِها للقاء أصلها العلويّ الذي جاءت منه، ومن ثم "القول الحجّة" في المسألة مشروط بالسداد الربّاني والنور والتأييد والعناية الإلهية، وبتجربة راسخة في الصحبة والجماعة والذكر والسلوك. وإننا إذًا، بصدد "مقامات" إيمانية إحسانية تربوية يلزم أن يتحقق بها الخائض في القضية وهو يروم "تبيُّن المسألة" و"الفصل في الأمر".

- وهنا، أتحسّس قلبي فأجده، قبل أن يستوي فهمي الذي عرضتُه وبعده، مطمئنا إلى هؤلاء الذين جمعوا: التجربة التربوية، وانجماعهم على الله، والصحبة مع الإمام.

مطمئن، لأسباب كثيرة؛ أولا لأن لـ"أهل الله" رؤية وسدادا وميزانا يتميزون به عن غيرهم (دون أن يعصمهم عن الخطأ طبعا)، فهم معهم "علوم القلب" التي تكشف لهم في قضايا السلوك والتربية والصحبة ما لا تُجلِّيه "علوم العقل". وثانيا لأن هؤلاء الذين أطمئن إليهم وإلى فهمهم للقضية، صاحَبناهم ردحا طويلا من الزمن، والزمن كشّاف، يكشف المعدن النفيس كما يكشف غيره، ولأن للمرء حواسّا في جسده وأخرى في قلبه وروحه بها يرى الرجال ويزنهم ويعرف حقيقتهم. وثالثا لأن لي ولك ميزانا، ذكرت لك منه سابقا "المجموع"، وهو يساعدنا لعرض رأيهم في المسألة الواحدة على مجموع رأيهم في المسائل كلها. وهذا كله -صادقا- يُطمئنني.

ثامنا: إلى العربي الذي عرفت

دعونا هنا نترك "مقارعة الأفكار" ولو إلى حين، لأتوجه بخطاب من القلب، علم الله، إلى أخي الفنان الأستاذ محمد العربي أبو حزم الذي عرفت[123].

لا أذكر جيّدا لحظةً حاسمةً وقع فيها التعارف بيننا، ولكني، وبعد أن كنت أسمع بك وعنك، تعرفت إليك أكثر، قبل عقد ونيّف من الزمن، في ورش من أوراش الجماعة، جَمَعنا يوميا سنين ثمان، فتَعَارفنا وتحاببنا في الله، وتبادلنا الرأي وتشاكسنا أحيانا، واقتسمنا السفر والضحك والشاي، كما العلم والذكر والتطلّع إلى ما هو أفضل لمساراتنا المهنية والعلمية الخاصة ولمسار دعوتنا التي شَرُفنا بالانتساب إليها.

وممّا أذكره عنك؛ صفاء السريرة، والتواضع، ودماثة الخُلق، والحكمة التي عركتها في داخلك تجارب السنين والأيام، ناهيك عن تعدّد المواهب التي حباك الله بها، ومنها لغتك الجميلة وأسلوبك الأخاذ في الكتابة، والذي أجده لا يُبارى.

والآن.. حين أقف، وبيني وبين ذلكم الشخص الذي ارْتَسَم في ذهني وقلبي عن معايشة يومية، فسحة من الزمن ليست طويلة، لكن أحْدَثْتَ فيها صنيعك هذا، وملأْتَ فضاءَه بملامحِ رجل آخر غير الذي عرفت، أقف حائرا متسائلا: ماذا حصل؟ وأين صاحبي؟

أجدني اليوم أمام شخص لا أعرفه، ليس لأنه يخالفني الرأي، فأنت تعلم علم اليقين منهجي في التعامل مع المخالف واحترامه، وإن كان من ملّة أخرى وليس فقط على رأيٍ ومذهب آخر، ولكن لأني أجد في رسالتك رجلا آخر، بمواصفات لا أرتضيها لأحد، فكيف بمن جمعني وإياه الحبُّ في الله أيّاما طِوَالا.

أجد رجلا يَبْخس الناس أشياءهم؛ فهم لم يصنعوا شيئا ولم يفعلوا إلا أن ضيّعوا أعمارهم وضيّعوا معها وصية إمامهم. وأجد رجلا رفع شعار "هلكَ النّاسُ" وهو يُشَخِّص واقع الجماعة التي نما وترعرع وشبَّ وشاب فيها. وأجد رجلا خوّن رجالا لم نر مع تطاول الأيام إلا أنها تزيدهم رسوخا ونورا وإقداما. وأجد رجلا ميَّالا إلى أساليب فيها من اللمز والغمز والسخرية والانتقاص ما لا تنبع عن الكَيِّس الفطن، فبله أن تصدر عن الشاعر الفنان الذي يَزِنُ الكلمات ووَقْعَ ألحانها. وأجد رجلا يتّهم أجيالا كاملة، وفيها الخبراء والمتخصّصون والدكاترة من كل فنّ ولون والمربون والسالكون والصادقون، وهُم مَنْ هُم، في عقولهم وأرواحهم واستقلالهم برأيهم، فيَصِفهم بالخنوع

[123] - يعنيني هنا التأكيد على أمر مهم، زيادة في الإيضاح. ما كتبته في هذه المقالة هو تعقيب على الأفكار الواردة في مكتوبات الكاتب أبي حزم، وخاصة الرسالة، هذا من جهة، كما هو تعامل مع بعض ما شاع وذاع من المعلومات ممّا بات معلوما لدى القريب والبعيد من جهة ثانية، كلقاء الكاتب بعض أعضاء مجلس الإرشاد أثناء اشتغاله على سيرة الإمام ياسين. ومن تم، ولأني وأخي العربي كانت بيننا صُحبة، فإني لست ممن يتكئون على ما كان فيها من إفضاء ونقاش، وما ورد حينها من آراء ومعطيات، كي أعتمدها الآن وأعززَّ بها موقفي. وأجدها مسألة لا تليق أخلاقا ولا مروءة، ولا تعني إلا أن يتشكَّكَ المرءُ فيمن حوله في كل الأوقات والأحيان، وألا ينطلق بعفويته وألا يكشف سريرته، مخافة أن تنقلب المواقف وتتغير المواقع، فيكشف الأصحاب ما كان بينهم بالأمس، ويطعن بعضهم ظهر بعض. وتلك نقيصة وأي نقيصة.

والخوف والإمعية... أُوقِف قلمي هنا عن الاسترسال. يكفي هذا لأن أقطع أني لست أمام الصديق والصاحب الذي عرفت.

ودعني هنا، أعمّي عن فؤادي وأصم سمعي وأغشي بصري عن هذا الذي أمامي الآن، ولو للحظات، وأفسح لروحي أن تسافر إلى ذلكم الزمن، تبحث عن "محمد العربي أبو حزم"، الذي ساقه القدر لألتقي به في مسيرتي، لأقول له في نهاية هذه الكلمات:

"أسأل الله أن تقودك سلامة الفطرة وأصالة الروح وصفاء الذهن إلى الخير والهدى والصواب، وأن يجعل لك مخرْجا وفرَجا ممّا أنت فيه، وأن يَخِيرَ لك المولى ويختار لك ويقتاد بك وبناصيتك إلى الخير، وأن يجمعني وإياك وقارئي هذه الكلمات وكل أمة الحبيب صلى الله عليه وسلم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. آمين".

تاسعا: خَوَ اتم

أختم بهذه الكلمات السريعات:

- أقول للأستاذ العربي، ولعدد ممن لا يألون جهدا في تبخيس الناس أشياءهم، وهذا هو الخلاف الأكبر في رأيي الآن، إن ثمة فارقا كبيرا بين الرأي والطعن، بين النقد والنقض، بين المعارضة والتخوين.

إن الانتقاص ممَّن ارتضاهم الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله لصُحبته، وممَّن قرّبهم إليه وجعلهم على رأس جماعته وتركها أمانة في أعناقهم، وهُمْ مَن هُم؛ لم يكتسبوا مكانتهم محاباة أو تحايلا، حاشا الرجل الصالح المصلح الذي كان يزن الرجال وحاشاهم، بل بصدقهم وسَبقهم وغنائهم وجُهدهم وجِهادهم ووِصالهم الليل بالنهار، وسعيهم في جِهات المغرب ومُدُنه ومَداشِره وقُراه، تأليفا وبناء وتشييدا لدعوة العدل والإحسان، إن الانتقاص منهم والخوض فيهم مع الخائضين في الفضاء الأزرق، وفي غيره من المنتديات مما شاع بها الخبر وذاع، لهي المصيبة في الأخلاق والسقوط في سُلّم المروءة، ولهي الخديعة الكبرى، تُوهِم بها النفسُ أصحابَها، وتتلبَّسُ عليهم في صورة المصلحين، وتُغلِّطهم بمقولات: النصح والقول البليغ والشورى وأمانة الإمام!

- وأقول أيضا، وهذا هو الخلاف الثاني الأكبر، إن هناك بونا شاسعا بين "العمل الجماعي" المبني على نواظم ناظِمةٍ لتنظيمه وأمره، وبين "الخبط العشواء" الذي يتوّهم أصحابه أنّهم يُصلحون العَطَب ويقوّمون العِوَج، حين يرابطون في كل ناد اتخذ "عمل غيرهم" مادة للتسلية، وحين يحرقون الأوقات تندرا بقضايا المؤسسات، وتَفَكُّها بكبيرها وصغيرها دون وازع ولا رادع.

وغريب حقا دعوة الكاتب في ندائه، في آخر الرسالة، لأن يكون فضاء الفيسبوك بمثابة "مجلس الشورى المفتوح"، فيه وعبره تقال "كلمة الحق قبل فوات أوانها" بـ"الجرعة الكافية" وبـ"الصدمة الكهربائية" في وجه

الجماعة ومسؤوليها! فعلا غريب. ذلك أن الإمام ياسين رحمه الله تعالى، مرجع الأستاذ العربي ومن ذهب مذهبه ومرجعنا، حين بدا له أن "الزاوية" ليست على النهج الصحيح، لم يقعد مُترصّدا لها كل مرصد، يقول ويعيد ويكرر، بل نصح ومضى إلى عمله، اخْتَطَّ مسارا جديدا، وبنى صرحا آخر، وقدم نفعا للأمة. أهذا أجدى، في ميزان العقل والشرع، أم مجلس مفتوح في فضاء افتراضي عمله "تَتَبُّع" و"تَرَصُّد" عمل الآخرين؟!

- خلال السنوات السبع التالية لرحيل الإمام أعلى الله مقامه (2012-2019)، التي وصفها كاتبنا بـ"السنوات السبع العجاف"، وبقدر ما انطرحت في ساحة الجماعة وأمام سَيْرها عقبات وتحديات جمّة لا تخفى، بقدر ما تجاوزت الجماعة، بفضل الله ومنّه، أهم "مزلقين" كانا مطروحين في طريقها، يرددهما الغيورون والمتربصون معا؛ مزلق التفكك والانقسام بعد رحيل الإمام وهو ما كان يبشر به البعض ويحذر منه البعض الآخر، ومزلق انحراف خط العدل والإحسان سواء اتجاه الحزب والسياسة والمشاركة الانتخابية أو اتجاه الزاوية والدروشة والزهادة الفردية واستنساخ التجربة الصوفية.

وفي فترة "السنوات السبع العجاف" هذه، ترسّخت عناوين ووقعت أحداث، لها دلالات واضحات وتُسدّد قراءات راجحات. فالجماعة رسخت تقليدا سنويا هو ذكرى الوفاء السنوية للإمام المؤسس، وحافظت على رباطاتها التربوية واعتكافاتها السنوية ولم تتخلف عنها مطلقا، وجمعت قلوب أبنائها على الحب في الله لأمينها العام ولمجلس إرشادها ولسائر المؤمنين والمؤمنات، وخرّجت أطرا في التربية والعلوم الشرعية والفكر والثقافة والسياسة تشق مسار التميز بين الأقران، وواصلت حركيتها في دعم الرفض الشعبي للتسلط المخزني في الريف وجرادة وأساتذة التعاقد وطلبة الطب وغيرهم كثير، وقدمت ضريبة خَطِّها اللاّحب تشميعا للبيوت وإعفاءً لعشرات الأطر والكفاءات وتضييقا على المئات، وحافظت على موقفها السياسي الرئيس من نظام الحكم ومن طبيعة اللعبة.

- العدل والإحسان جماعة من الناس، تعتقد أنها على صواب وأنها على منهاج خير ورشاد، وهي، كغيرها، يسري عليها من الاختلال والنّقص والضعف ما هو من "طبع البشر"، فما سمعنا يوما أننا في "تجمُّع ملائكي"، ولا اعتقدنا أننا بإزاء "تنظيم طُهراني". بل هي تشتغل، من جملة ما تشتغل عليه، على استكمال فضائلها وتدارك نقائصها. وصدق الشاعر حين يقول إذ يخاطب الإنسان، وهو ما يسري على الجماعة من الناس أيضا:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ** فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

- ليس الزمن على خط مستقيم، وليس السَيْر صُعُدا دائما، بل الحياة كما البحر مدٌّ وجَزْر، والدنيا كما المعركة كَرٌّ وفَرّ. ومن ثم يَحْدُث أن تتراجع الدعوة في فترة أو فترات مثلا، أو يفشو سلوك لا يليق عند بعض أبنائها، أو يخطئ جهازها السياسي التقديرَ وهو يَتّخذ قرارا. ثم يأتي الله بالمدد مدّا وكرّا، وينضج الفهمُ حسنَ تقديرٍ وصوابَ رأيٍ، ويستعيد الجسم الدعوي نشاطه وإشعاعه، فهذا كله من "طبيعة" الحياة والحركات والبشر.

ومن طلب غير هذا، فكأنه يطلب العِصْمة أو شيئا يقاربها، وهي لعمري طوباوية ويوتوبيا مغرقة في الأحلام والأوهام. ولينظر في نفسه، المترصِّدُ لكل هفوة، أهي حاثَّةُ السير والخطى والإقدام على طول الأيام، لا يعتريها الضعف والخطأ والتقصير والزلل؟!

- لعلّ أهم ما تشتغل عليه "الصحبة والجماعة" و"الصحبة في الجماعة"، استكمال رجولة الإنسان؛ تربية وجهادا، خُلُقا حَسَنا وفَهْما مُتَّزنا. وهي تروم، من بين ما تروم، السُموَّ بهم عاليا؛ تَعفُّفا وتَورُّعا وتَحوُّطا وتَثبُّتا خاصة عند الخلافات. وإني أخاف، ونفسي المسيئة أعني أولا، أن ننسى هذا اللّب والجوهر، بل أن نغفل عن أخلاق الإسلام وليس فقط عن تطلعات الإحسان، فننجرّ إلى الزور والفجور والطعن والجدل العقيم والأخذ والرد المخلوط بالرياء والأهواء، ونسوّد صحائفنا بما يضرُّ الواحدَ منّا في ذاته ودينه قبل أن ينتقص من مخالفه، حتى إذا وقفنا على حقيقة أنفسنا أنكرناها، وحتى إذا فتَّشْنا قلوبنا لم نجدها على شيء.

- قبل أن أكتب "أخيرا"، أقول لأخي أبي حزم الذي عرفت: إن أصْررت على رأيك في مسألة الصحبة، وهذا حقُّك طبعا، فأرجو أن تستدرك على نفسك "قبل فوات الأوان"، وأن تنحاز إلى أخلاق الكِبار في الخِلاف.

وبعيدا عن هذه "المطارحات الهادئة"، أقْنَعَتْكَ أم لا، فإنه قد "آنَ الأَوَانُ"، أيها الفنّان، لأن تنحاز لخيار ومسلك، بصرف النظر عن طبيعته ومضمونه، أهدى وأعقل وأنفع وأجدى وأسدى من هذا الذي تمضي فيه الآن؛ أهدى في ميزان الشرع، وأعقل في ميزان المنطق، وأنفع في ميزان العقل، وأجدى في ميزان الفطرة، وأسدى في ميزان "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان".

وإذا كان هذا هو "قولُ العقْلِ" و"رأيُ المنطقِ"، فإن "أملَ القَلْبِ" و"تَوْقَ الرُّوحِ" في التي تَعلمُ وأَعلم: ألا يمنعنّ "الخطأ" صاحبَه من الارتداد إلى الصواب، والرجوع إلى الحق إذا ظهر له، فالحقُّ أحقّ أن يُتَّبع.

وختاما، أذكّر نفسي، وأذكرك، بأن الله يسأل عن صحبة ساعة. ولقد صَحِبتَ العشرات من رجالات هذه الجماعة عشرات السنين، بأيامها ولياليها، بذكرها وقيامها، بهمومها وتهممها، بمسرَّاتها وعثراتها، برباطاتها وساحاتها، بعبَراتها وعِبرها... فلا تُفسد أول الأمر بآخره. فإن لم يكن بد من "الاختلاف"، فلا أقل من وصية ربّنا الخالدة "ولا تنسوا الفضل بينكم".

- أخيرا، كاتب هذا الكلام، عبد الرحمن خيزران، لن ينفعه عند الله شيء، إن كانت غاية مبتغاه الطمع في رضا قيادته أو نيل إعجاب قرّائه، وإن هو لم يُخلص نِيّته إلى مولاه فيما كتب من رأي وقدّم من نصح.

وهو، أنا، أعلم بنفسه التي بين جنبيه وحاله مع الله من غيره، وإنه ليشهد أنه عبد ضعيف مُقصّر في جنب الله، مفرّط في حقّ هذه الدعوة التي انتمى إليها وأحبَّ أهلها. وإنه ليعتبر نفسه من أقل الناس علما ومعرفة وشأنا، وأضعفهم إقبالا على الطاعات والقربات، وأكثرهم وقوعا في الأخطاء والزلّات. وما كان يَتَصوّر أن يضع نفسه في

هذا الموضع، لولا مَحبّة الخير لطائفة ممن الْتَبَست عليهم السُبُل، وذَودا عن دوحة غنَّاء مليئة بالفضل، ونُصحا لرجل أحبّه زمنا في الله عزّ وجلّ.

- هذا، وأجعل مسك ختام هذا الكلام، أفضل الصلاة وأزكى السلام، على خير الورى والأنام، سيّدنا محمد شفيعنا في يوم الزحام، وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه الكرام. سائلا المولى الجواد أن يجعلنا ممن اشتاق لهم رسولنا الكريم، وبَادَلُوه شوقا بشوق. آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

الدار البيضاء، يوم الإثنين 7 ذي القعدة 1441 الموافق لـ29 يونيو 2020